في أدب السجون

إسحاق الشيخ يعقوب

المساءلة





المساءلة

في أدب السجون

إسحاق الشيخ يعقوب

المساءلة

دار الفارابي

الكتاب: المساءلة
المؤلف: إسحاق الشيخ يعقوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-634-3

الإهداء



إلى من انتزعوه من على مقاعد الجامعة... وساقوه إلى الزنزانة... وهو يحلم بوطن قادم جميل... وشهادة علمية يشق بها طريق هذا الوطن القادم الجميل... وكان يحلم بحبيبة وبيت وأطفال.. إلّا أنهم خنقوا روحه بصواعق التعذيب... إلى خالد النزهة أهدي هذا الكتاب!!

المقدمة

قبل أكثر من نصف قرن كانت فسحة أمل لمستقبل أفضل.. تتوالد في صيرورة الوطن... وكانت نمطية رتابة رؤية التخلّف السائدة والمهيمنة على قيادة المجتمع.. تقف بالمرصاد ضد رؤية التقدم التي كانت تحمل ألويتها آنذاك قوى إصلاحية يسارية وتقدمية وشيوعيّة وكان هناك من يحاول أن يحرك تاريخ الوطن على الطريق الصحيح في البناء والتنمية وشق الطريق إلى حياة كريمة إنسانيّة حرّة لرجال ونساء وأطفال الوطن.. وكان هناك من يخالف ويخشىٰ من يُحرِّك تاريخ الوطن على الطريق الصحيح تخلفاً أو جهلاً بالتشبث بقديم التاريخ!!

وكان ثمة صراع فكري لم تكتمل معالم نضجه راح يأخذ مداه في تلك المرحلة في قطاعات العمال والمثقفين امتداداً لإنتاج النفط وانعكاس عائداته المادية والفكرية لدى الدولة وفي حياة الناس بجانب التأثيرات الإقليمية والعالمية لحركة التحرر الوطني ومظاهر الانقلابات العسكرية القومية في مصر وسوريا واليمن والعراق وليبيا مما أثار حراكاً جيوسياسياً في المنطقة وخاصة في دول الخليج والجزيرة العربية.. وقد أدى

إضراب جماهيري عمالي مطلبي إلى تحسين أوضاع عمال شركة أرامكو في العربية السعودية على الرغم من القمع والسجن والتشريد الذي انصبّ على الفصائل الوطنية التي كانت تحرك تلك المطالب العمالية.. وقد تحوّل الحراك العمالي إلى إقامة تنظيم سياسي سري أطلق عليه «جبهة الإصلاح الوطني».. وارتقىٰ إلى «جبهة التحرر الوطني» ومن ثم إلى «الحزب الشيوعي» وكان هذا العمل التنظيمي السياسي السري عبر مراحل تحولاته النوعية يشكّل عملاً مطلبياً سلمياً ارتكز في برامجه العملية على الدعوة إلى استكمال هيكلية الدولة السعودية وتحديث مؤسساتها بروح العصر وبناء المؤسسات المدنية وتطعيمها بمثقفي الشباب الوطني وذوي الكفاءات العلمية والثقافية وتفعيل الروح الوطنية في المجتمع ومحاربة الاستعمار وتصفية قواعده العسكرية وبناء المرافق الصحية ونشرها في أنحاء الوطن.. وتوسيع وتطوير شبكة المدارس والمعاهد والجامعات والانفتاح على سياسة التعليم العالي في الابتعاث إلى الدول الأوروبية والعمل على رعاية الشباب والأطفال واحتوائهم في أجواء تثقيفية متفتحة على ثقافة الشعوب المتطورة والمستنيرة وإقامة حضانات للأطفال وفتح مجال العمل للمرأة ومشاركتها بجانب الرجل في العمل وبالنهوض بالوطن واعتماد سياسة التجنيد الإجباري لبناء جيش وطني يصون ويحمي الوطن وتشكيل نقابات مهنية

ومنظمات طلابية وشبابية وأحزاب سياسية. . . وإطلاق الحريات العامة: حرية النقد والتفكير والعقيدة والنشر والصحافة واعتماد قوانين عصرية وتطوير القضاء الشرعي والانتقال به إلى القضاء المدني وتشريع نظام دستوري ملكي ينظِّم علاقات منظومات المجتمع ومؤسساته المدنية ويحدد صلاحيات الأوساط الحاكمة تجاه الأوساط المحكومة في المجتمع على أسس ديمقراطية عصرية وتفعيل المجتمع بالحريات العامة وإقامة منظوماته التشريعية والتنفيذية والقضائية والإعلامية وفق روح العصر ومتطلبات الحياة المدنية. . وخلاف ذلك من الإصلاحات التي تضمنتها برامج الأحزاب السرِّية اليسارية والشيوعية والقومية والديمقراطية التقدمية وهي من المطالب الإصلاحية التي تأتي ملحة وضرورية لأي مجتمع يريد أن ينهض بشعبه إلى حياة مجيدة ومستقبل أفضل!!

وتأتي الحياة لتؤكد صحة وضرورة التوجهات الإصلاحية الوطنية التي كانت تقترحها وتطالب بها تلك الأوساط السياسية التي تضمّن الكتاب ذكر أسماء بعض أفرادها. . والتي واجهت الرفض والقمع والإرهاب والسجن والتعذيب والتنكيل. .

وقد رأى وقال وأكد شخصيات تكنوقراطية وكُتّاب ومثقفون وأمراء وتُجار ووجهاء سعوديون داخل السلطة

وخارجها أن لو كان هناك بُعد نظر وطني وتطلع موضوعي لدى القيادات الحاكمة آنذاك في استيعاب وتفهم تلك المطالب الإصلاحية التي كانت تنادي بها منذ الخمسينيات تلك القوىٰ الوطنية والديمقراطية والتقدمية لأخذ مجرىٰ تاريخ المملكة منحىٰ مغايراً على طريق التنمية البشرية في التنوير والإصلاح والتغيير. ولما عانت المملكة ما تُعانيه من مظاهر الإرهاب والتخلف والنهب والفساد في مجمل منظومات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية!!

وإن من المحزن والمفرح في آن واحد أن تتوجه الدولة نحو الأخذ بالكثير من الآراء والمواقف التي كانت القوىٰ الوطنية والديمقراطية تطالب باتخاذ إجراءات فعلية في تطبيقها والتي نرىٰ شيئاً منها يأخذ حيِّز التطبيق وأشياء منها حيِّز التوثب والمطالبة بها بحرية على واجهات الصحف المحلية.. وللحقيقة والواقع، إن عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد اللّٰه بن عبد العزيز يتجلّىٰ واثقاً بالنهوض بالوطن على طريق الإصلاح والتغيير وفق شروطٍ معاصرة في الحداثة والتحديث وما يخص النهضة التعليمية المعاصرة الشاملة والمختلطة.. التي تؤسس فجر أمة ناهضة تأخذ مجد طريقها في شبه جزيرة العرب!!

وإذا كانت الحقيقة مبتغانا، فإن الرعيل الأول من الشباب الوطني في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات والثمانينيات

وما يليها من الذين رفعوا راية الإصلاح والتغيير، الأحياء منهم والأموات، والذين واجهوا القمع والإرهاب والتشريد والسجون والتنكيل.. لهو جدير بأن تشكل لجنة وطنية مهمتها إعادة الاعتبار لهم وتعويضهم جراء ما أصابهم من عطل وضرر هم وأهلهم وأطفالهم.. وهو ما يُشكِّل رداً اعتبارياً وطنياً وتعميداً حقيقياً على طريق الإصلاح والتغيير وما يليق بالسعي الجليل لخادم الحرمين الشريفين ورفقاء دربه على طريق الإصلاح والتغيير. في النهوض بالمملكة إلى مجد الرقي والازدهار!!

. . . وكنا نُخفي أفكارنا عن آخرين. . ونُسربها لآخرين بوعي وحذر شديدين. . . وكنا نفتح عيون الآخرين بدفء الحديث والكتاب. . ونذُر بذور التمرد في نفوسهم بحثاً عن الشَّرر في الرماد. . . فشرارةٌ. . توقد شرارة. . وفكرٌ يوقد فكراً. . هكذا يتوقّد شرر الأفكار في هشيم المجتمع ويهز وعي الناس في الناس!!

من السهل أن تهزّ جذع شجرة مثمرة. . وتنحني لتجني ثمارها من على الأرض. . . ولكن من الصعب أن تهز جذع فكر في جذع رجل. . . وتحرك فكره بفكرك. . وتصحبه معك لإشعال النور في الظلام!!

جذوع الرجال وأفكارها ليست كالأشجار تهزها وتجني ثمارها. . جذوع الأشجار ثابتة في الأرض من السهل الإمساك بها. . أما جذوع الرجال فإنها جذوع متحركة بأفكارها التي تُحرّكها وليست جذوعها. . الفكر يُحرّك المادة ـ الجذع. . إلّا أن المادة ـ الجذع في الأساس هي التي تُحرّك الفكر!!.

سأل المسيح أحد أنصاره (حوارييه) ما أنت فاعل (يا سمعان) وكان يصطاد سمكاً على صخرة في بحيرة طبريا.. لامسه المسيح بكفه على ظهره.. وقال له تعال معي أُرِكْ كيف تصطاد الرجال.. ما كنا يومها نصطاد لا رجالاً ولا نساءً... وكنا نأخذهم بأفكارهم في أفكارنا ونستوي بهم وقوداً في رماد الوطن..

وكنا أمام مجتمع منغلق سائد في ظلام جهل وفقر ومرض.. الناس فيه ترتعد فرائصها من نظام أوتوقراطي ـ ثيوقراطي سيوفه مسلطة على رقاب من يخرج على ولاء السمع والطاعة في المجتمع!!

كان ذلك في الخمسينيات وكنا في عتم الظلام الضارب حتى نخاع المجتمع.. وكنا محمومين جراء العمل من أجل الخروج من نفق الظلام المطبق على أنفاس المجتمع.. ولم تكن آلة استخراج النفط التي وفدت إلى الوطن آنذاك وحدها بل كان برفقتها صُنّاعها ومهندسو إدارتها ومديرو أجهزتها والحادبون على وضعها في أماكن استخراج النفط.. وقد حطّت برفقة الآلة على الأرض أفكارٌ حرّكت الأرض وأفكار من على الأرض.. وكان حراك الآلة في الأرض حرَّك فكر من على الأرض من الذين تقاطروا من كل حدب وصوب

لبيع قوىً عملهم للآلة وسيد الآلة... الذي أتى من وراء البحار مدفوعاً بوهج ربح الرأسمالية الجشعة!!

آنذاك، ما كان للإنسان قيمة على أرض الوطن.. وكان الإنسان سلعة رخيصة يتلاعب بها قانون العرض والطلب في سوق العمل.. وكنا في مجتمع لا وجود لدستور فيه ولا وجود لقوانين تنظم سلطته وتدير أحواله وكان الدستور هو الدين وكان الجميع يخضع لسيف الحاكم وكان عقل الإنسان (...) يرفض مجتمعاً تُديره سلطة الغاب وكنا فريق كفاح في إطار تنظيم سري نخفي فيه أفكارنا ونديرها بحذر للآخرين.. وكنا نناضل في ظروف صعبة ونجابه استبداد نظام غاشم فمجالات الحرية معتمة ولا بصيص لنورٍ إلا في قلوب بعضهم وكنا نبحث عن هذا البعض في كثيف الجهل والفقر والمرض.. وكنا ندفع بأفكارنا في الصحف وعبر الكتاب والمنشور وكنا نستوي في علن المتاح لنكرس متاحاً أفضل من الحرية.. وقد أعلنا في تحدٍ ليس له نظير في لجنة العمال التي قادت إضراب 1953 وجبهة الإصلاح لاحقاً وجبهة التحرر والحزب الشيوعي وشهرنا أفكارنا وبرنامجنا الوطني وهويتنا الفكرية والأيديولوجية وكنا ننادي بحكم ملكي دستوري ونظام يكفل الأنشطة السياسية والفكرية والثقافية والنقابية والحريات العامة: حرية الفكر والنقد والصحافة

والنشر والتأليف والعقيدة ومساواة المرأة في التعليم والعمل والثقافة وتوسيع دوائر العلم والمعرفة وفتح الجامعات وإشاعة الكهرباء في مدن وقُرىٰ المملكة وتوطين البادية ومحو الأمية وما إلى ذلك من المطالب الذي تحقق الكثير منها متأخراً. . وعلى الرغم من أن أنشطتنا كانت متواضعة في الداخل جراء القمع والتنكيل والتشريد والملاحقة إلّا أنها كانت متنامية في الخارج وفي دول مثل سوريا ولبنان والعراق ومصر والمساهمات في قضايا حركة التحرر الوطني على صعيد العالم. . الأمر الذي أثار وأجج أنشطة دوائر الأنظمة الرجعية وأجهزتها التي ترى في ذلك خروجاً على ولي الأمر وتمرداً على تقاليد السمع والطاعة التي كانت ثوابتها الإسلامية ثابتة في المجتمع. . وكان البحث والمطاردة والسجن والتعذيب واقعاً أخذ مداه وطال العديد منا وفتح النظام السجون على مصراعيها وراح يزج بخيرة العمال والشباب الوطني والمثقفين والكتاب والصحفيين في أتون السجون وملاحقة الوطنيين وتشريدهم خارج الوطن. . وكان البطش يحتدم ويأخذ مداه وكان البحث عن قوى الحرية والديمقراطية على أشده. . وكانت أجهزة الدول العربية الرجعية آنذاك بجانب دعم ومساندة أجهزة المخابرات الأميركية (C.I.A) تقوم بعمل موحّد في مطاردتنا بحجة الخطر الشيوعي الذي يهدد الإسلام

ويعمل على تقويض أركانه.. وقد شكّل ذلك دعاية ظالمة ضد الوطنيين والديمقراطيين والقوميين والليبراليين وعلى رأسهم اليساريون والشيوعيون وكان مثل هذا الادعاء الباطل لأجهزة الإعلام الرجعية والاستعمارية له صدى لدى كثير من أوساط المجتمعات العربية وكانت التنظيمات الإسلامية من الإخوان المسلمين والتكفيريين تسرح وتمرح في طول وعرض الأنظمة العربية وتلاقي الإعجاب والترحيب والدعم من أجهزة الـ (C.I.A) والرجعية العربية على مناهضتها وتكفيرها للأنشطة اليسارية والشيوعية والقومية!!

وكانت أجهزة النظام الرجعية بالتعاون مع أجهزة المخابرات الأميركية (C.I.A) تحتسب لأنشطتنا السرية وتحاول كشف عناصرنا التنظيمية والكفاحية.. وقد أدركتُ أن واقع النشاط السري لا يكشفه ويتمكن من تنظيماته إلا واقع أنشطة سرية مناهضة داخل التنظيم السري ذاته وتهيئة بعض مرتزقة النظام وتجنيدهم داخل صفوف اليسار والأحزاب الشيوعية والقومية.. وكنا نضع قواعد دقيقة في المراقبة والتدقيق والبحث والتأكد من خلفية الأعضاء الجدد الذين يدخلون في التنظيم وظروفهم العائلية والقبلية والاجتماعية وما إلى ذلك من معلومات قد تكشف شيئاً من دوافع الرغبة والانتماء في أنشطة التنظيم السياسية والاجتماعية والثقافية.. فالحذر

واليقظة ضمانة نضعها نصب العين لصيانة ونقاء التنظيم من الأعداء والجواسيس وقد مررنا ببعض الحالات أذكر واحدة منها... فيوم أن وزعنا مشروع برنامجنا السياسي الشيوعي للمناقشة وإبداء الرأي داخل تنظيماتنا وخلايانا الحزبية.. كنا على حرص تام واستنفار أن لا يتسرب البرنامج إلى جهات أمنية وكانت المهمة تنحصر في قراءة البرنامج وإعادته حالاً وإعطاء الملاحظات إن وجدت.. وذات يوم تعثّرت إعادة البرنامج من أحد الأعضاء.. ففتح باب التحقيق معه فقال إنه أخفاه تحت الثلاجة ولما أراد إعادته لم يجده.. وقال ربما ألقت به (الخدامة) خارج المنزل أثناء التنظيف فاحتدم النقاش في لجنة الحزب الأمنية.. واهتدى أحدنا بأن الثلاجة بحجم 12 قدماً ولا تستطيع الخدامة زحزحتها وتنظيف ما تحتها.. ليكن هذا احتمالاً... وقال أحدنا يجب أن لا نذهب بعيداً في تصوراتنا الاحتمالية... وقال آخر.. أمزّق البرنامج أو أحرقه جراء الخوف؟! احتمال... ما أكثر الاحتمالات التي تُحلّق ويحلّق بها خيالنا...

أمّا أن أرىٰ بأم عيني البرنامج ذاته في ملف ضابط المخابرات في سجن الرياض بشكله الذي ما غاب عن ذاكرتي.. وبأوراقه الرقيقة وحروفه الزرقاء فقد نسخ بكاربون آلة كاتبة.. وأراه يوم أن كنت أمام ضابط التحقيق

(أبو ناصر) في أوراق ملف يحتوي على أدبيات ما نشر وما وزع لجبهة الإصلاح والتحرر والحزب الشيوعي وغيرها من المقالات السياسية والفكرية والصحافية فقد تشاوطت أسلاك ذاكرتي إلى لحظة احتدام نقاشنا في لجنة الحزب الأمنية.. وكان احتدام نقاش لاحقاً بعد الخروج من السجن في أن لا نذهب بعيداً.. بعيداً... فالذهاب بعيداً.. بعيداً يصبح متاهة.. وقال آخر ربما وصل برنامج الحزب الذي حرصنا عليه أن لا يقع بين أيدي أجهزة المباحث... فوقع بين أيدي أطراف خارج رواية إخفائه تحت الثلاجة.. واحتدم النقاش أيضاً.. وأيضاً.. أكان البرنامج ذاته.. أم نسخة أخرى.. وقد كان الجواب حاسماً بأن جميع النسخ عادت إلى مواقعها سالمة إلّا نسخة «الثلاجة».

كثيرة هي مواقع الشك والريبة في العمل السري.. وبقدر ما هي مفيدة ضارة وظالمة كذلك... ولكن ما العمل لقد كان قدرنا في عملنا السري الذي فُرض علينا.. وكان السلاح الوحيد الأكثر واقعية ومضاء في الأنظمة الدكتاتورية والاستبدادية.. أمّا أن نكون مُرهفي الحساسية فلحرصنا على تنظيمنا وتعلقنا بقضية شعبنا في التغيير والإصلاح!!

أكنا طرفاً نقيضاً.. أم طرف معارضة؟! لم نكن طرفاً نقيضاً!! فالنقيض يأخذ إلى واقع تغيير وتحول في النوع...

وما كنا تغيير (نوع) بقدر ما كنا تغيير (كم) وكنا نستهدف تغيير أوضاع متردية مؤذية للإنسان والوطن.. وكان نضالنا.. نضالاً سلمياً مطلبياً ضد أوضاع رجعية وتدابير قمعيّة ظالمة مستبدة لا تقيم وزناً لأبسط حقوق الإنسان كمواطن له حقوق وعليه واجبات في المجتمع وبهذا كنا طرف معارضة في تصحيح الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ضمن نظام دستوري ملكي يصون ويحمي الحقوق المدنية والإنسانية في المجتمع.. أي إننا لم نكن طرف نقيض نوعياً وإنما طرف معارضة تستهدف تصحيح أوضاع متخلفة مؤذية في نظام ملكي لواقع موضوعي يرعى مصلحة الناس في المجتمع.. وكان مثل هذا العمل في الخمسينيات.. يشكّل تحدياً وخروجاً فظاً على الدين الإسلامي في طاعة ولي الأمر!! وكان تنظيمنا السري الذي أخذ يتشكّل ضمن مراحله القاسية بمثابة حاجة ضرورية وطنية اقتضتها الظروف الشاقة في معاناة الإنسان والوطن.. وكانت أجهزة النظام تحاول استقصاء نشاطنا السري في تلوّن رجالها فينا.. وكنا بالمقابل نحاول استقصاء أنشطة أجهزتها السرية والعلنية في تلوين رجالنا فيها لتحصين مواقعنا ودرء المخاطر التي تهددها سراً وعلانيةً.. وكانت الإمكانيات غير متكافئة بل كانت إمكانياتهم تشكل أضراراً كبيرة إذ تشل حركتنا عن طريق

الاعتقال والملاحقة والسجن والتهديد والتنصت والتلوّن وكانت بيننا وبينهم حربٌ صاخبة في العلن وحرب صامتة في السر... وكان العلن عندنا ضعيفاً خلاف ما عندهم فإنهم يملكون أجهزة الإعلام والدعاية والصحف ووسائل النشر المسموعة والمرئية والمكتوبة والمؤسسات الدينية وفقهاءها ودعاتها ومرشديها ومرتزقتها الذين يشنون حملاتهم الظلامية التكفيرية ويدفعون بافتراءاتهم ضدنا ويؤلبون المجتمع علينا..

وبجانب القمع والتنكيل والتعذيب وسحق آدمية الإنسان وتمزيق كرامته وإذلاله وهتك ضميره.. يأتي إغراء المال وجاه الوظيفة حوافز تؤدي إلى هتك الذمة الوطنية والخيانة الحزبية وتسحق كرامة الإنسان ـ العضوي وتحيله إلى يباب من التفاهات والارتزاق على فتات موائد أجهزة الأمن إلى أن يُصبح منكفئاً في ذاته ولذاته أداة تطرف لإرضاء النظام وعين نميمة وتجسس وافتراء ضد من كان معهم في بيت واحد وعلى طريق واحد!!

كثيرون أولئك الذين سحقت آدميتهم آلة القمع والتنكيل والتعذيب وهُتكت كرامتهم في أقبية الظلام.. إلا أن جذور الإنسانية تجاه مبدئية ما يحملونه من أفكار ضاعفت وأججت مقاومة وإصرار كرامة نفوسهم على الطريق ذاته في ترقب متفائل لبزوغ فجر جديد!!

وفي الانتكاسات والهزائم السياسية والأيديولوجية تزخر الساحة بالمرتزقة والانتهازيين والتبريريين وتسود أفكار الاسترخاء في مجانية الانتظار إلى أن تنضج الظروف... عندئذ يحين تحرُّك المثقف العضوي في المجتمع.. وقد ملأت الحياة أفواه من هم على شاكلة هؤلاء... بالتراب كما أراها اليوم لا تكف ـ أيضاً ـ عن ملء أفواه التبريريين والانهزاميين الذين يسترسلون في الشخير على وسادة استرخاء الفكر والضمير إلى أن تنضج الظروف في المجتمع!!

وتسر وتبتهج أجهزة النظام القمعية أمام ثقافة استرخاء الفكر والضمير والأيديولوجية.. وتدفع إلى تكريسها وتعزيز انهزاميتها في أوساط الأنتلجنسيا ورموز التكنوقراط في المجتمع!!

لقد توغلت آلية الترغيب والترهيب في ضمير المثقف العضوي الذي استرخت عضويته وهمدت همّته ولم يعد عضواً اجتماعياً بعد.. وهو ما أفرزته ثقافة وأيديولوجية الاسترخاء في نضج الظروف إلى أن تدق ساعة النفير... أو الانتفاء بالنفس خارج نفير الالتزام بحجّة أن الالتزام في التنظيم يقتل الإبداع ويشل ملكة المثقف العضوي بأيديولوجية وبرنامج تنظيم واحد.. إن مثل هذه الأفكار المهزومة في ذاتها والتي فقدت ثقة مبدئيتها الفكرية تستأذن في الهروب

والتغريد خارج السرب وتطالب بالاستقلال بذاتها في ذاتها وتدير ظهرها لحقيقة الالتزام في العمل والإبداع تجاه الوطن والإنسان.

* * *

يطاردوننا بصمت.. ونطاردهم بصمت.. كأن الصمت ميدان مطاردة ومراقبة وتلصص... يدسون عيونهم فينا.. وندس عيوننا فيهم.. نفتح عيوننا عليهم ويفتحون عيونهم علينا.. يلجوننا بصمت... ونحاول أن نلجهم بصمت... لغة الصمت تفضح لغة العلن.. ولغة العلن تفضح لغة الصمت.. نفر من بين قبضتهم.. ونتنكر بأسماءٍ غير أسمائنا.. ونرتدي غير أرديتنا... نخفي علنية هويتنا.. وننتقل من منطقة إلى منطقة.. وعندما نقع بين أيديهم نلجأ إلى الصمت.. ويلجأون إلى أدوات القمع والتعذيب فينتزعون صمتنا بعد معاناة تمزق الروح في الجسد.. نخفي شيئاً من أسرارنا... ونُسر لهم بشيء... نراوغ ويراوغون... يأخذوننا واحداً بعد الآخر بالترغيب والترهيب ترتخي فرائص بعضنا للترغيب.. وتتلاطم رُعباً وخوفاً من الترهيب.. تتوسع دوائر اعتقالنا.. وتتراقص عقارب الشك بيننا ونحن في

السجن. . . زنازيننا الملتصقة بعضها ببعض تتهامس فينا من بين شقوق أبوابها ونحن نتهامس فيها. . يفتح عينه أحدنا (. . .) على أحدنا (. . .) يخرج أحدنا مع أحدهم من الزنزانة. . يغيب يومين خارج الزنزانة. . . لقد راح يَدُلُّهم على مطبعة الحزب. . . تبقىٰ المطبعة دون أن يمسها أحد. . فيمسنا العجب!! ويرتكز سؤال موارب لدينا (؟؟) لماذا لا يصادرون المطبعة. . ولا يسائلون صاحب الدار. . . إن في ذلك لُغزاً. . . يقول أحدنا. . . هم يدفنون أسرارهم فينا. . ونحن بالكاد نُشيح بأسرارنا عنهم. . فالتكافؤ مفقود بين قضية عادلة وقضية باطلة. . يهمس أحدنا. . . لا يريدون كشف أوراقهم فيما وصلوا إليه. . ولا كشف من تعاون معهم. . ويبقىٰ السؤال حائراً. . ويوم أن خرجنا من السجن. . انتظم فينا وأبدىٰ نشاطاً محموماً. . كأنه يُريد أن يُزيل ما علق بين أردانه في الزنزانة. . . هكذا تصل أخباره. . . وتبقىٰ لعنة السجن تلازم أرواحنا. . ونحن خارج السجن. . وتشف ذاكرتنا بذاكرة قمعه وإرهابه وتعذيبه. . عذابات الأجساد تندمل. . وتبقىٰ عذابات الأرواح. . تؤجج عذابات ذاكرتها فينا. . وتأخذ بارتداداتها في عزوف الكثير منا. . والتنكر للماضي الوطني الجميل وعدم العودة إليه. . إلّا أن الحياة

ولادة فمن العدم تتفتح الزنابق وتنمو زهور الحياة من جديد في الحياة!!

* * *

يدل علينا أحدنا... أو من لم يكن من أحدنا... نعيش معاناة الهروب والتنكر وإخفاء النفس في النفس.. والتشظّي في سرية العلن... في البحث عن الرّغيف.. رغيف الفكر في الكتاب والخليّة.. ورغيف لقمة العيش في الحياة.. رغيف العيش يوفر رغيف الفكر.. أم رغيف الفكر يوفّر لقمة العيش؟! لولا رغيف العيش لما كان رغيف الفكر.. هكذا قال: «مكسيم غوركي» (البطن الجائع لا يعرف إلّا لغة الرغيف) وفي كثير من الأحيان تصبح لقمة العيش أداة عالقة عائقة لرغيف الفكر.. أعرف أحدنا (...) يوم أن كان عاطلاً عن العمل كان في منتهىٰ النشاط حتى التطرف... وعندما توافر له العمل المترف.. خفّ نشاطاً وكاد أن ينتهي... من هنا.. أخذت بي دوائر التأمل بين رغيف الفكر ورغيف العيش.. وتبقىٰ إرادة مبدئية العمل الحزبي تُجسد تاريخياً إرادتها الإنسانية في النهوض والارتقاء بفقراء الوطن والإنسان وتحديد إرادة الرغيف بإرادة الفكر.. وليس العكس!!

يفقد الفرد إنسانيته برغيف العيش.. ولا يفقدها برغيف الفكر... قد يجلب الفكر رغيفاً طيباً وطنياً وإنسانياً لذيذ المذاق.. وقد يجلب الرغيف فكراً سيئاً لاإنسانياً لا طعم ولا نكهة ولا مذاق له!!

وفي المحصلة.. رغيف الفكر له أهمية.. ورغيف العيش له أهمية.. وعلى رغيف العيش.. أن لا يضطهد رغيف الفكر.. وعلى رغيف الفكر أن لا يضطهد رغيف العيش.. لكي يسود عدل رغيف العيش ورغيف الفكر في الحياة!! وكنا ندمن رغيف الفكر حتى نكاد أن ننسىٰ رغيف العيش.. فيشدنا الجوع إلى ما تيسر من رغيف العيش.. وكانت الأيديولوجية الماركسية تأخذنا أفراداً وجماعات متلاطمة في نهر الفكر وعيش الحياة.. وعلى حين غرّة نفتح عيوننا.. وإذ بنا في غُربة الوطن.. وغربة السجن.. وغربة المنفىٰ... فنفترق ونتجمّع ونتنازع ونعود على إيقاع نشيد الوطن من أجل انتزاع الحرية من تضاريس الحياة!!

اللّه... ما أغرب الإنسان.. وما أعجب الإنسان.. وما أعظم الإنسان إذا ارتبط بفكر الإنسان من أجل الإنسان.. وكنا معشر قوم نقاوم بطش السلطان.. ونغري الإنسان من أجل فجر الإنسان.. وكانت أفواهنا وعقولنا وضمائرنا مترعة بنكهة الإنسان.. وكان لا ألذّ ولا أروع ولا أطيب من طعم

الإنسان في الإنسان.. أكان طعم رجل في امرأة.. أم طعم امرأة في امرأة.. أم طعم رجل في رجل... وقد كان مصدر لذّة الطّعم والنكهة من أصل جينة الإنسان التي تجذّرت وارتقت بالإنسان في عصف نمو الحياة!!

* * *

وتضيق حبال المعاناة فينا.. ونضيق في حبالها.. وتشدنا حبالها ونتماسك في أنفسنا بأنفسنا.. وتتنازع قلوبنا.. وقلوبنا.. ونُصاب بعدوىٰ التفكك.. فنتحاشاها وتتحاشانا.. ونستوي قلب رجل واحد في جسم تنظيم واحد... ونمد ألسنتنا إلى رجل المباحث... ونحثو في وجهه التراب ونحن نُدير ظهورنا للفرار!!

وكأننا قدر حياة.. وكأن الحياة قدرنا... أجل إنها قدرنا في التغيير.. وترانا بعد عناء طويل.. أصبح التغيير قدرنا وقدرهم... ها هم سلاطين قمعنا وأجهزة التنكيل بنا ينادون بالتغيير والإصلاح.. كما كنا ننادي بها في الخمسينيات...

رحم اللّه عبد العزيز المعمر آية الوطن والوطنية في جزيرتنا العربية.. فقد كان يقول قبل أكثر من نصف قرن ما معناه: سيأتي يوم نراهم فيه يرددون شعاراتنا.. ويأكلون من

أرغفتنا الفكرية.. بعد أن يزيلوا عنها ما علق بها من أفكار لها رائحة من روائح أفكارنا...

* * *

إن من أخطر وأصعب وأعقد ما يواجهه رجل المباحث... هو البحث عن دقائق أسرار الناس في الناس.. والتوغل في مخزون الضمير وكشف بيّنة ما يخفيه وما يطمح إلى تحقيقه!!

إن عملية شق قلب الآخر والنزول فيه بهدف الوصول إلى خفايا ما لديه من أسرار وأفكار... عملية معقدة وشاقة تقتضي مهارة ونباهة مُستدل علمي مبني على واقع قواعد أمنية دائمة المراقبة شاملة الاستقصاء في الوصول إلى خصائص ما يخفيه الآخر عن الآخر!!

إن ما يخفيه ويحتفظ به الإنسان في نفسه ولنفسه ويقوم بإخفائه عن الآخرين له حرمة خصوصية أحاسيس ذاتية وليس هناك أكثر إرهافاً لدىٰ الإنسان من أحاسيسه... ولذا فإن خصوصية الذات من خصوصية الأحاسيس لدىٰ الإنسان.. فكيف إذا وجد من يحاول هتك حرمة أحاسيس خفاياها وتفتيشها والوقوف على دقائق أسرارها!! وهو أداء ارتبط بِفرَقِ الجواسيس ومرتزقة تجاوز خصائص الآخرين في أدقّ

شؤونهم الفكرية والاجتماعية والسياسية.. وكان من تلك الأسباب أن أصبحت الكراهية تلاحق أفراد المباحث والجواسيس الذين راحوا يخفون صفاتهم ولا يكشفون عن هوية مهنتهم... من واقع لعنة الكراهية التي تلاحقهم... وسمعتهم التي أصبحت امتهاناً واستنكاراً من الجميع.. حتى عُرف أنهم يأخذون (بدل سمعة) علاوة انحطاط الوظيفة..

وكنا نتقي بعناية شرّ جواسيس الـ C.I.A الأكثر انتشاراً.. وشرّ جواسيس المباحث.. وشرّ جواسيس المخابرات.. وشرّ جواسيس الحرس.. وفي زحمة وازدحام مهمات أنشطتهم... يلحظ المتابع التناقض والتنافس فيما بينهم.. وربما العداء... على الرغم من أنهم ينفذون مهنة واحدة في محاربة الأفكار والتنظيمات الوطنية والقومية والشيوعية بجانب العلائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المنوطة بالمجتمع ورفع التقارير حولها.. وقد يبدو الصراع ظاهراً.. في ظاهرة هنا وظاهرة هناك..

ويوم أن احتدم النقاش في أحد البيوت الأحسائية العامرة بالفرح ليلتها.. قال أحدهم في لحظة ما... أنت تعمل جاسوساً ضد الحركة الوطنية.. وردّ عليه الآخر... وأنت تعمل جاسوساً للمخابرات المركزية C.I.A!! قال محدثي... الأحسائي الجميل البعيد القريب من تنظيمنا

والأكثر حرصاً علينا من آخرين منا: الكل يعلم أن «المرزوقي» أحد رجال أجهزة وزارة الداخلية أما صاحبكم (. . .) فابحثوا وتأكدوا عنه. . . فرجلُ أمنٍ كالمرزوقي لا ينطق عن الهوىٰ. .

أدري أن تنافساً متأصلاً بين من يعمل في أجهزة استخبارات الخارج ومن يعمل في أجهزة استخبارات الداخل في ملاحقتنا وإحصاء أنفاسنا. . وتشتيت شملنا وقمع إرادتنا. . وأدري أن الكراهية تأخذ مداها. . وأن المرء عدو من يعمل بمهنته كما يُقال. . ولا يتخلّف أحدهم أن يشي بآخر في فريق آخر. . . وفي ظاهرة يوم أن كنا نتهيأ لمقابلة ولي العهد آنذاك عبد الله بن عبد العزيز للمطالبة برفع إقامة السفر الجبرية عنا كان رجل أمن الحرس الوطني يأخذ أسماءنا واحداً واحداً. . وعندما وصل إلى أحدنا. . . قلّبه بعينه وسأله إذا كان يعمل في الأمن (!!!) وكادت ذاكرتي تخفق بي في «المرزوقي» وكاد أن يتهاوىٰ متلعثماً وكنا مأخوذين باللقاء. . . ولم ينتبه الكثير منا لتلك اللحظة (. . .) إلّا من كان بقربه. . فأعصاب الجميع متوترة تحت ضغط المقابلة!!

هناك كراهية فاقعة ونقمة عداوة عارمة بين أجهزة أمن الدولة وأجهزة الـ C.I.A. . وكما يبدو أن هذه العداوة

والنقمة طبيعية بين أجهزة أمن «وطنية» وأجهزة أمن استعمارية وفي حرب صامتة.. تشتد أحياناً إلى تمزيق أحدهم الآخر وفضح أنشطته.. إنها شأن حرب سرية بين جواسيس!! وإلّا لماذا كان رجل أمن الحرس الوطني يشير إلى أحدنا وبالتحديد بأنه رجل مباحث ونحن نتهيأ لمقابلة ولي العهد ورئيس الحرس الوطني.. لحظتئذ تخاطفت ذاكرتي «المرزوقي» وبرنامج الحزب الذي وضع تحت الثلاجة وبعض ملاحظات هنا وهناك... يمكن أن يستل النابه شعرتها من عجينة الحياة!! يا لعجينة الحياة ما أكثر جواسيسها ومرتزقتها وأفّاقيها ونصّابيها!! ما كنا نحن اليساريين واليشوعيين وحدنا في العمل الوطني.. بل كان الناصريون والبعثيون والقوميون أيضاً وكنا على طرفي نقيض مع السلطة ونظامها وأجهزتها ومؤسساتها.. وعلى طرفي نقيض ـ أيضاً ـ فيما بيننا.. وكنا نبتسم بعضنا لبعض من بعيد وقلوبنا طافحة بالكراهية والاحتقار... ولكوننا في خندق واحد من العمل النضالي.. فإن هويتنا السياسية وانتماءاتنا الحزبية سرعان ما تنكشف لنا جميعاً.. على الرغم من أن العمل السري يأخذ دقّة وسريّة حركته ونشاطه.. وكانت لعمليات التسرب خصوصية أنشطتها السرية الدقيقة في التأثير فينا وانتقال بعض القوميين والناصريين والبعثيين إلى صفوفنا وانخراطهم في تنظيمنا وهي

عملية لها مخاطرها الفكرية والتنظيمية الحساسة لعدم وضوح دوافع بعضهم وخلفية أيديولوجياتهم الفكرية.. وقد يكون للانتقال من تنظيم إلى تنظيم دوافع وخفايا وأهداف لها ارتباطاتها بأجهزة المباحث أو أجهزة الـ C.I.A..

وكانت الضربات المتلاحقة التي واجهناها من أجهزة سلطات الأمن والمباحث والاستخبارات والـ C.I.A والتي دفعت الكثير من عناصرنا إلى السجن والاعتقال والتشرد قد أتت عبر عناصر التنظيم وبعض كوادره من الذين كانوا في تنظيمات سابقة قومية وبعثية ودينية وناصرية من الذين هجروا تنظيماتهم والتحقوا بنا.. وللحقيقة والأمانة لم تكن لجميع الذين تركوا تنظيماتهم والتحقوا بنا مواقف متخاذلة لا في النشاط التنظيمي ولا في السجن وجهاً لوجه أمام ضباط التحقيق.. فمنهم ومنا من خرط سبحة ما يعرف وما لا يعرف عن التنظيم..

وكنت أعرف أحدهم... وكان يتشدق بأن السجن مدرسة نضالية تشد من عزيمة الرجال وتقوي إرادة التحدي وتضاعف إصرارهم على التمسك بقضية شعبهم.. وكان يتمنىٰ السجن لنفسه ولرفقائه لتلقين السلطة وأجهزة المباحث دروساً في الصمود والوطنية.. وكنت أخزه بنظرات لها ألف معنىٰ ومعنىٰ.. وأهز يدي في وجهه... وأصمت... أفي

فمي ماء؟! وكنت أقول صامتاً تمنّه... لنفسك كما تشاء...
ولا تتمنّه لغيرك.. وكأنني أَدْرِيْ حقيقته!!

السجن لعنة تلاحق المسجون مدىٰ الحياة.. السجن فخ الطاغية... ومن يقع فيه يُصبح تحت قبضة سياطه.. السجن عذاب يُهري الروح قبل أن يهري الجسد.. إن الحكمة الصوفية «من ذاق عرف» تراها شاملة في الحياة لطيباتها وخبائثها.. ومن ذاق مرارة السجن وعذاب الروح فيه لا يمكن أن يتمناه لغيره.. فكيف لنفسه!!

* * *

ويوم أن ألقت سلطات الأمن القبض على بعض القوميين... اشتدّ استنفار صفوفنا وتجافلت مشاعرنا واضطربت أحاسيسنا.. فالخطر إذا تناول بيت جارك.. فإن بيتك مهدد بالخطر ذاته... انفرطت سبحة القوميين تحت سياط الجلادين.. وفغر السجن فاه... وتدافعوا فيه الواحد بعد الآخر... وكان أحدهم قد تركهم قبل أكثر من سنتين وانتمىٰ إلينا وكأنهم دفعوا باسمه نكاية أمام ضابط التحقيق... فأتوا به يرسف في قيده إلى السجن.. وتحت سياط الجلاد وتنكيل ضابط التحقيق فرط السبحة... هذه السبحة الملعونة عندما ينفرط عقدها تتساقط خرزة.. خرزة

بألوانها.. واحدة بعد الأخرى في حضن ضابط التحقيق ويلتقطها بعناية... وكان الصمود ومجابهة التعذيب لأحدنا (...) شهراً وشهرين وثلاثة شهور حتى شارف نهاية صموده بعد أن سحّ دم جسده... وفرط السبحة في أحدنا (...) ومن أحدنا (...) إلى أحدنا (...) أخذت حبات الخرز الملوّنة تتساقط الواحدة بعد الأخرى... فتنافر بعضهم خارج الوطن.. وانتقل بعضهم إلى مناطق أخرى في الوطن.. ولزم بعضهم صمت الاختفاء.. فقلّت حركة اللقاء واشتدت حملتنا الإعلامية في الخارج تطالب بإطلاق سراح المعتقلين الراكعين والشامخين في سجون الدمام وسجون الرياض وسجون جدّة.. وكان الكثيرون لعلّي لا أنسىٰ أحداً منهم: زكي أبو السعود.. ونجيب الخنيزي.. وعلي الخنيزي وعلي الدميني ومحمد العلي.. وجواد بوحليقه.. وعلي الناجي وحمد الحمدان.. ومحمد الزامل.. وعبد المحسن الشبل.. وحسن سنان.. وإسحاق الشيخ وعبد اللّه فاران وأحمد المختار ووحيد المعلم وعبد اللّه غانم ومبارك الحمود ومهدي العصفور وخالد داوود كشغري ومالك الناصر ومحمد الجشي وكامل عبد الحميد الخطي وفوزي طناب ومنصور المتروك وعبد الأمير الغانم ونزار الشماسي وخالد الناجي وعماد الكاظم وعبد اللّه محمد

حسين وعلي العنيزان وحمود الربيعة وعبد الكريم اليوسف وهدىٰ اليوسف وفوزية اليوسف وصالح العزاز وعبد الرحمن الملا وحمد الكنهل وعبد المحسن الحقيل ومصطفىٰ وهبه وصالح الصالح وخالد النزهة ومحمد عبد الباقي وعلي العبد المحسن العبد الباقي وباقر الشماسي وسعيد ماجد الشبّر وعبد اللّٰه علي الناصر وعلي سلمان الحبيب وعلي القويفلي ومحمد القويفلي وعقل الباهلي وعلوي حيدر الساده ومحمد حيدر الساده وعبد اللّه حمد اليوسف وعادل سلمان الحبيب وغيرهم وغيرهم ممن لا أذكر أسماءهم!! ومنهم من أتيت على أسمائهم في المحطة 14 في سجن العبيد المدرجة في الكتاب!!

وقد فَقَد الكثيرون منهم وظائفهم وأرغموا على الإقامة الجبرية وسحبت منهم جوازات سفرهم ومنعوا من السفر أكثر من إحدى عشرة سنة وقد تباينت سنوات السجن فيما بينهم من سنة إلى سنتين إلى ثلاث سنوات إلى عشر سنوات وإلى خمس عشرة سنة.. كما تباينت سنوات الإقامة الجبرية والمنع من السفر بين ثلاث وخمس سنوات وإحدى عشر سنة. وقد شكّل سجنهم وما واجهوه من إهانة وجلد وتنكيل وتعذيب.. وطردهم من وظائفهم ومنعهم من السفر أضراراً مأسوية بالغة.. انعكست سلباً على حياتهم الاجتماعية وعلى أُسرهم وأطفالهم.. وكان العقاب قاسياً وظالماً.. قياساً على مطالبهم العادلة في الدفاع عن قضية شعبهم في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وصيانة الاستقلال الوطني.. وتصفية القواعد العسكرية الاستعمارية وتحرير الثروة النفطية وإعادة النظر في شروطها المجحفة وتحديث شروطها على قواعد وبنود متكافئة الحقوق والواجبات وسن قوانين مدنية تحمي المواطنة وتصون الكرامة الإنسانية وتُحرر المجتمع من مظاهر التخلُّف وإقامة دستور للبلاد والنهوض بقطاعات

التعليم والصحة والخدمات وتطويرها وفق علوم العصر والحداثة والإجهاز على الأمية وبناء المرافق الصحية وكهربة القُرى وتوطين البادية وتكريس الحريات العامة السياسية والثقافية وحرية الفكر والنقد والعقيدة والنشر والصحافة والكتاب وتكريس حقوق الإنسان وإعطاء المرأة حقوقها ومساواتها في المجتمع وخلاف ذلك من المطالب الوطنية التي لو طُبّقت وأُخذ بها حينئذٍ لكانت ظروفنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والأمنية والتعليمية والصحية والمعيشية على أحسن حال.. وتأتي مصداقية الموقف وبُعد النظر الوطني في نضال من اضطهدوا وسجنوا وعذبوا وطردوا من وظائفهم وأعمالهم وشرّدوا وحوربوا في أرزاقهم:

بأن ما طالبوا به منذ الخمسينيات والستينيات والثمانينيات سنوات السجن والقمع والإرهاب الفكري والتنكيل قد أخذت الدولة الآن تسعى إلى محاولة تحقيق تلك المطالب العادلة التي كانت تُطالب بها القوى الوطنية واليسارية والشيوعية والقومية... وللحقيقة فقد حققت الدولة بعضاً من تلك المطالب التي أتينا آنفاً على ذكرها.. وفق المؤشرات الإيجابية والإصلاحية التي تأخذ طريقها في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد اللّه بن عبد العزيز لا سيما في مجال التعليم والنهوض بالتعليم العالي.

ولا نُذيع سراً أن الحياة تأتي لتؤكد صحة وعدالة

المطالب التي ناضل وكافح وكابد السجون والعذاب والتشرّد من أجلها الكثير من عناصر القوىٰ الوطنية من شيوعيين ويساريين وقوميين.. ولا يزالون يحملون في نفوسهم وعقولهم وأفكارهم وأرواحهم مشاعل الحرية من أجل مملكة دستورية مدنية ديمقراطية واثقة مؤمنة بعدالة وحرية وديمقراطية شعبها.. وهو ما يجد صداه متردداً في رأس الدولة ولدىٰ بعض مؤسساتها وغيرها من المؤسسات المدنية!!

ومنذ الخمسينيات والتاريخ يلوّح بذراعه ويومئ بجوارحه أنْ لا الشيوعيون ولا اليساريون ولا البعثيون ولا القوميون ولا الناصريون شكّلوا أو يشكلون خطراً على الدولة ونظامها الملكي. وإنما الخطر يأتي من قوى الإرهاب والتطرف ورموز الإسلام السياسي ومنظماته وعناصره الذين يرابطون في مؤسسات الدولة وغيرها من المؤسسات المدنيّة.. وقد ظهرت مؤشرات مخاطر نيّاتهم تتكشف إبَّان اجتياح صدام حسين الكويت.. إذ أظهروا سرورهم وتأييدهم وتمنياتهم مواصلة زحفه إلى مصبات النفط في الخفجي ورأس تنورة.. وقد تنادوا وبعثوا ترحيبهم بزحف جيش صدام حسين عن طريق بعض الفلسطينيين من الإخوان المسلمين.. وهم لم يخفوا مشاعرهم وفرحتهم حين كانت صواريخ صدام حسين تقصف الرياض والشرقية.. وقال شاعرهم يوم أن انطلقت صواريخ (سكود) على العاصمة الرياض..

(يا سكود يا زينك أو يا زين مسراك
يم الرياض أو فوق قصر اليمامه)

إلى آخر القصيدة الإسلاموية التي لم أحفظ إلّا أوّل بيت منها!!

وإن ما يدلل على مقاومتهم الدولة والمجتمع هو أعمالهم الإرهابية الإجرامية في قلب العاصمة الرياض وغيرها من المدن ومحاولتهم الفاشلة تفجير سمو الأمير محمد بن نايف في قلب وزارة الداخلية..

إن من هؤلاء الأصوليين والسلفيين ومن هم في عدادهم.. ومن يظهرون بمظهر مغاير لما يُخفيه هؤلاء.. وما يماكرون به في قلوبهم ونفوسهم خلاف ما يُظهرون كونهم لا يتعاطفون ولا ينتمون إلى حزب سياسي... هؤلاء تراهم الأقربين الناصحين العاملين والمفكرين والقابضين على بعض إدارة وتوجيه مؤسسات الدولة والمؤسسات الأخرى في المجتمع.. وقد تكاثروا وتجذروا وتوسعوا وتنامت ثرواتهم ومصالحهم حتى تماثلت إرادتهم الطبقية الأيديولوجية بإرادة طبقة السلطة الحاكمة... أو هكذا يبدو الأمر ـ جهلاً ـ لدىٰ بعضهم... أكانوا في أوساط السلطة الحاكمة أم خارجها وهو ما يندرج في قراءة خاطئة للتاريخ.. ولا أحد باستطاعته أن يقف على دقائق أهوائهم أو نمو أموالهم وطغيان نفوذهم في السلطة والمجتمع مما يؤدي إلى السيطرة الكاملة على

مقدرات النظام السياسي وقلبه وفق توجهاتهم الإيمانية والعقيدية المستمدة من التاريخ والمناوئة للتاريخ في الوقت ذاته.. وإذا كانوا يتمثلون بمكر التاريخ والتمنهج بمنهاج غدره في الاستيلاء على مقدرات سلطة المجتمع وإلقاء القبض على سلطته السياسية وإدارتها وفق جاهلية وتخلُّف رؤاهم الدينية المتقاطعة مع روح العصر.. إلّا أنهم كما يوظفون رؤاهم الدينية في الوصول إلى السلطة.. فإن هذه الرؤى الدينية يمكن إخضاعها وتبديل أيديولوجية توجهاتها في التعامل مع أوساط خارجية واستعمارية!!

فالتكتيك يُخفي استراتيجيته في مسار تلوّنه... وعندما يصل إلى هدفه يكشف استراتيجية مبتغاه ويظهر على حقيقته... وهو ما ينطبق على الرؤىٰ الدينية فيما يجوز وما لا يجوز، التي تشكل تكنيك وتكتيك أنشطة الإسلام السياسي في المجتمع عبر إخفاء الهدف الاستراتيجي وهو تسلم السلطة.. وعند تسلم السلطة يغيب التكتيك كلياً وتغدو الاستراتيجية كل شيء!!

من هذا المنطلق، إن المراهنة على بعض قوىٰ ورموز أصولية وسلفية أو ما يُسمىٰ بالسلف الصالح وتركيزهم في مؤسسات المجتمع هو واقع ساذج خالي الوفاض من الحكمة التاريخية التي تشير إلى أن لكل زمان دولة ورجالاً.. ولا

يمكن اللعب بأوراق وأفكار رجال أزمنة الأمس على طاولة أوراق وأفكار أزمنة اليوم!!

فلكل عصرٍ حكمته التاريخية في بناء دولته!! إن هؤلاء المتأسلمين المتمصلحين المتلونين بفتيا الرؤىٰ الدينية الذين تتباهىٰ بهم السلطة السياسية عندنا وتُنيط بهم مناصب مهمة في الدولة وفي أجهزة النظام السياسي وفي المجتمع وتغدق عليهم الأموال والمخصصات والامتيازات والعطايا وتمنحهم صفاتهم الوجاهية والدينية في المجتمع... إن هؤلاء قلوبهم مع الدولة وسيوفهم عليها.. إنهم أبناء ختل وغدر وضغينة وافتراء.. والتاريخ تراه يضج في مواقعه بوقائعهم في الغدر والنكث بالعهود والوعود.. وقد انقلبوا على الأيدي البيضاء التي أنعمت عليهم وأكرمت مثواهم فأدموها عضاً ونتفاً!!

* * *

وتأتي الأيام كاشفة عن حقائقها وإيقاعها.. وتتلفت السلطة الحاكمة حولها وتتراجع شيئاً فشيئاً إلى ما كانت تنادي به القوىٰ الوطنية والديمقراطية في الخمسينيات والستينيات والثمانينيات من الذين غصّت بهم السجون إثر مطالباتهم الإصلاحية والتغييرية في بنية المجتمع.. بعد أن استبدّ الإرهاب بالمجتمع وراح يهدد أجهزة السلطة التي

كانت قد رعت واحتضنت رموزه التاريخيين من الإخوان المسلمين الذين فروا إثر ملاحقة وقمع أجهزة جمال عبد الناصر في الجمهورية المصرية وملاحقة وقمع أجهزة حافظ أسد في الجمهورية السورية.. بعد أن انكشفوا على حقيقتهم في الغدر والختل والارتداد وعضّ الأيادي التي رعتهم وقرّبتهم وحمتهم وأكرمت مثواهم... وقد كانت المملكة العربية السعودية الراعي الذي فروا إليه وتفيّأوا تحت ظلال مؤسساته واستنفعوا بثرواته وتبوّأوا الوظائف والمراكز الحساسة في الدولة واجتهدوا عبر مكانتهم المرموقة في الأجهزة التعليمية بتكريس ونشر أفكار التطرّف والظلام في المجتمع.. وتعبئة شرائحه الاجتماعية وشبيبته على طريق الإرهاب والاستشهاد وخلق البلبلة وزعزعة الثقة بالأوساط الحاكمة والمحكومة وإشاعة ثقافة التكفير وضرورة القضاء - فرض عين - على نظام الدولة الحالي وإبداله بمجتمع الإيمان والخلافة الإسلامية.. الأمر الذي اضطر وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز أن يُصرّح قائلاً: إن بلاء الإرهاب لم يأتنا إلا من جماعة الإخوان المسلمين!!

* * *

أليس من الدين الإسلامي.. ومن النبل والفضيلة.. في الانصاف والعدل.. إزالة السيئات بالحسنات؟!

أليس ما أثبتته الحياة أن ما كان يُطالب به اليساريون والشيوعيون والقوميون والبعثيون والناصريون.. الأموات منهم والأحياء... وعلى مسار أكثر من نصف قرن من الزمن.. هو عين الوطنية والصواب والحكمة.. والذي لا يختلف عليه اثنان... وما يجد له ترحيباً بهذا الشكل أو ذاك الآن في أجهزة السلطة السياسية والإعلامية.. ويأخذ تطبيقه على طريق الحداثة والتحديث والانفتاح في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد اللّٰه بن عبد العزيز..

إن إعادة النظر في المواقف والأحكام الباطلة والسجون الظالمة والملاحقة والتعذيب التي لحقت بمن أتينا على أسمائهم آنفاً ومن لم نأتِ على أسمائهم... واقع وطني وحقوقي في إعادة الاعتبار إليهم وإلى أنشطتهم وأدبياتهم ومنظماتهم وأحزابهم... وتعويضهم جراء ما لحق بهم وبعائلاتهم وأطفالهم من أذىً وعطل وضرر!! وليس في ذلك منّة أو استجداء وإنما حق شرعي وحقوقي يندرج صارخاً ضمن البيان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية والحقوقية على وجه الأرض..

* * *

وكنا نتصور في نفوسنا وعقولنا أننا على طريق عقيدة...

تصنع حياة مسالمة للناس. . وأنهم على عقيدة. . . يشربون من كؤوسها دماء الناس. . . ويصغون بها للموت. . . ونحن نُصغي بها للحياة. . . أكنا كذلك. . . وأكانوا كما كنا نُصغي بها للحياة. . وإلا لماذا يدفعون بنا إلى الاعتقال والسجن والقتل والتعذيب وغلِّ النفوس بالكراهية والإرغام والتنكيل بآدمية الإنسان وسحق كرامته وهدر حقوقه وتطويع إرادته ومسخ خياراته وقمعها بالحديد والنار. . ورفض حياة حرة كريمة عادلة زاخرة بالعدل في الحقوق والواجبات التي ننشدها ونستوي في الحياة لانضاجها بأفكار متقدمة لتغيير الحياة إلى الأفضل وتحسين أوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. . وكنا نريد أن ننتزع الحياة من بين أظفار وأنياب شريعة الغاب وتشكيلها عبر عقل وعدل شريعة الإنسان في الحرية والمحبة والمساواة. . وقد كابدنا صعوبات الهروب والمنفىٰ والتخفي والسجون ومواجهة القمع والتعذيب. .

* * *

عيون العسس تلاحقنا. . . بدأب وصمت. . ونحن نختفي بدأب وصمت. . ونتوارىٰ عن الأنظار!!

أيمكن التواري عن الأنظار في وقع حركة دؤوبة تحت سقف الأنظار؟!

عليك أن تتشكل في اسم غير اسمك.. وتلبس لبساً غير لبسك وتمتلك هوية غير هويتك.. وتسكن منزلاً غير منزلك وتبحث عن عمل باسمٍ غير اسمك وهوية غير هويتك وتصبح ممكناً في عمق المستحيل في تحدٍّ معقد من أجل لقمة العيش بجانب لقمة نضال العمل الحزبي... وتكون في حركة دؤوبة تعج بالناس وتحت أنظار الناس!! تتجنب بحذر من تعرف ومن يعرفك... فتشكك في معرفته.. يقول لك ألست (فلان) فتقول له لا لست بفلان... يخلق اللّه من الشّبه ألف نعجة وكبش، يبتسم ويهز كتفيه متلعثماً ويمضي في طريقه.. ينقضُّ عليك أحد الأصدقاء ويفاجئك بالضم والقبلات وتفاجئه بابتسامة صفراء وكأنك لست أنت... أأنت خليفة؟... وكنا نعمل سوية في شركة عبد العزيز كانو في الرياض أتذكرني ألا تذكرني؟! تقول له لا.. لم أكن أنا.. ولكن الشكل ذاته والطول ذاته والمشية ذاتها والوجه ذاته والعينين ذاتهما والابتسامة ذاتها، تقول له يخلق اللّه من الشبه الكثير الكثير. يتجافل إلى الخلف متردياً في خجله... تنظر إليه من طرف عينك بحسرة وتراه كأنه يُحدّث نفسه!!

تُفاجئك مفاجآت حرجة وتفاجئها بالمواربة والهروب من حقيقة تعيشها متخفياً عن أنظار أجهزة المباحث وجواسيسها

الذين يذرعون المجتمع ومؤسساته المدنيّة.. فتنام في قلق وتصحو في قلق وتذهب إلى العمل في قلق وتفرح في قلق وتغضب في قلق حتى يتجسّد بك القلق وتصبح في وضعٍ طبيعي من القلق... فالحياة كما تعيشها وليست كما تعيشك.. فإذا عاشتك امتصت إرادتك فيها.. وإذا عشتها امتصصت إرادتها وطوّعتها في العمل ـ حيث السعادة ـ من أجل لقمة العيش ولقمة النضال الوطني والحزبي في ركب الإنسانية التقدمية من أجل حقوق إنسانية وأنسنة المواطنة في الوطن!!

أعود.. فأسأل نفسي!!

أصحيح أن الحياة كما تعيشها... وليست كما تعيشك؟! أنعيش نحن الحياة أم أن الحياة تعيشنا؟ أيمكن العيش في الحياة والتجرّد منها؟! ألأحدٍ أن يسعىٰ في الحياة ويتجرّد من سعيها ومسعاها؟! ألأحدٍ أن يعيش خارج جدل الحياة ويعمل خارج جدل الحياة ويفكّر خارج جدل الحياة؟! ليس الإنسان مجرداً عن الحياة وليست الحياة مجردة عن الإنسان.. فالحياة صناعة أخذ وعطاء... فإذا أجدت صناعتها أجادت صناعتك... نحن نأكل في الحياة والحياة تأكلنا.. نحن نموت في الحياة ونحيا ونعيشها.. والحياة تموت فينا وتحيا وتعيشنا.. إننا نُسرمد الحياة.. والحياة تُسرمدنا.. ما أجمل

وأبدع أن نتسرمد في الحياة ونحن نحمل قضية الإنسان في عقولنا وأرواحنا.. وضمائرنا ونبشر بها بين الناس..

* * *

الحياة حالة فيزيائية.. والموت حالة فيزيائية.. والروح حالة فيزيائية في الجسد.. إلا أنها تفرُّ من الجسد!!

وهل يمكن للروح أن تفر من الجسد؟! تفر إلى أين؟! أليست الروح أيضاً حالة فيزيائية.. أن تفر من الجسد وهي فيه؟! أو هل للجسد أن يفر من الروح وهو فيها؟! يوم أن أطبقت عليّ الزنزانة كان جسدي رهن مغاليق مخارجها.. وكانت روحي تخرج في الفضاء تتلمس نجوم السماء وتأخذ شيئاً منها وتنثرها بين أكمام «نعيمة» فتتلقفها نجمة.. نجمة.. وتعلقها على صدور الأطفال وهي تنشدهم نشيد أسمائهم: سمرٌ وبُشرىٰ وثباتٌ في الدّنيا وهديلٌ كالحمام.. أغمض عيني وأسعد لروح تفر من الجسد تبحث عن الحرية.. ولكن عندما يُقيد الجسد في الزنزانة.. أليست الروح تقيد معه.. أليست الروح حالة فيزيائية كالجسد.. فكيف تنفصل عن الجسد في البحث عن الحرية؟! تقول الروح في الجسد حالة فيزيائية!!

ولكن ما الفيزياء؟! كل شيء في الحياة يتخلّق

فيزيائياً... أليس اللّٰه فيزياء.. أليس اللّٰه روح الفيزياء في الكون!! أليست الفيزياء أبدية الحياة.. وأبدية الموت... فالإنسان يتشكل فيزيائياً في الحياة وفي الموت.. إذن فالحياة مادية وروح فيزيائية.. وكان التعاكس الفيزيائي بين المادة والروح في الحياة.. المادة تسكن الروح.. أم الروح تسكن المادة.. أولوية التساكن بين المادة والروح لمن؟! لفيزياء الروح أم لفيزياء المادة.. لا لفيزيائية روح بلا فيزيائية مادة.. إلّا أن الأولوية لفيزياء المادة!! «الفيزياء هي العلم الذي يدرس كل ما يتعلق بالمادة وحركتها بالإضافة إلى مفاهيم أخرىٰ كالفضاء والزمن ويتعامل مع خصائص كونيّة محسوسة يمكن قياسها مثل القوة والطاقة والكتلة والشحنة وتعتمد الفيزياء المنهج التجريبي أي إنها تحاول تفسير الظواهر الطبيعية والقوانين التي تحكم الكون عن طريق نظريات قابلة للاختبار» وأتعجّب فيزيائياً.. إن السجين وهو في قعر الزنزانة.. يعيش فيزيائياً ويتأمل فيزيائياً.. ويتوهّم فيزيائياً: إنه داخل الكون وخارج الكون فتثير نفسه في نفسه موجات صراع الروح في الجسد مع الجسد... حتى يكاد السجين يطفو في الخيال مهاجراً يخاطب اللّٰه عبر الروح خارج الجسد ويعتب عليه وعلى الحالة البائسة التي يعيشها وحيداً في زنزانته وتحت سلطة القمع والتهديد والتعذيب والوعيد.. وهو لم يقترف شيئاً لا في حق دينه ولا في حق

نبيّه... وهو لم يأكل مالاً لأحد.. ولم يعتدِ على أحد ولم يسئ إلى أحد.. وإنما امتثل للقول الأثير: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان!!

وهم يأخذونه على حين غرّة ومن بين أطفاله أو من عمله أو في طريقه ويلقونه بأغلال الإثم والاعتداء والعدوان وفق قول كريم: إنما جزاء الذين يسعون في الأرض فساداً.. أن تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يصلبوا.. وهكذا يُقولبون الدين وفق أهوائهم ومصالحهم ونزعاتهم العدوانية في السيطرة والنهب والاستغلال.. ومتىٰ كان روّاد الحرية والديمقراطية والتعددية والكرامة الإنسانية يسعون في الأرض فساداً؟! من يسعىٰ في الأرض فساداً.. ومن يكم الأفواه والأجساد بالحديد والنار ومن يقمع الإرادة الحرّة للعقول المستنيرة في المجتمع؟!

وكانت الضغوط النفسية والروحية تُعرّي روح السجين وتمزّق وجدانية دهشة تأملاته فيزيائياً في جدل الحياة!! فيفيق على نفسه يسألها.. أجُننت؟! أم جنّت بي دهشة تأملاتي الفيزيائية في قعر الزنزانة؟!

* * *

في صراع تخيلات العقل والجنون... يشعر السجين بنوبات الجنون تنتابه.. يتلمس نفسه ويسألها.. أجنون باغتني؟! أم أنا الذي أباغت الجنون بمخيّلة مجنونة.. فأصبح في بوح معقول في اللامعقول.. أمسك بتلابيب مخيلتي أعيدها إلى المعقول.. وهي متطيّرة في اللامعقول!!

ينفضُ السجين مشاعر مخيّلته سرداً في خرافة «طاقية الإخفاء» يتوهّمها يضعها على رأسه يختفي يخرج من بوابة سجن الرياض فلا يراه أحد.. إنه يَرَىٰ ولا يُرىٰ!! يمر من تحت أنف السجَّان والسجان لا يراه.. يدفعه بيده.. فيفتح الطريق أمامه.. يبصق في وجه السجّان منتقماً.. يمسح السجّان بكفه وجهه دون أن يحرك ساكناً!!

هو من الشرقية ولا يعرف سكيك الرياض.. هو يمشي بقدم مخيلته التي تأخذه إلى مقهىٰ على قارعة الطريق.. يطلب شاياً وفولاً وشيشة جراك.. يُحدّث نفسه عليَّ أن أمتطي «تكسياً» ليأخذني إلى الأهل في الشرقيّة.. وعندما أصل سأخفي طاقية الإخفاء وأنزعها من على رأسي.. ليروني وأراهم... وإلا ما فائدة أن أراهم.. وهم لا يرونني!!

يتلمّس وعي مخيلته في لاوعيه ويفيق على نفسه وهو ممدد على ظهره في الزنزانة... يقول لنفسه أجنون ما أنا فيه.. أم هذيان المخيلة في النفس.. وإذا لم يكن جنوناً فإن هذيان المخيلة هو شيء من الجنون!!

ويتأرجح بمخيلته بين العقل والجنون ويتذكّر الشاعر البدوي الذي يقول: «المستريح اللي من العقل مسلوب».

ولكن ما الجنون أيحس المجنون بجنونه!! أهناك أحاسيس عاقلة.. وأحاسيس مجنونة؟! أقول لنفسي عليّ أن أخرج من هذر النفس في المخيلة ومن هذر المخيلة في النفس.. لكي لا يُطبق عليّ الجنون!! أعود إلى نفسي متأرجحاً بين عقل في غي الجنون وعقل في غي العقل وأصبح رهن مخيلة مضطربة تبحث عن جنون المعنىٰ... وهل لجنون المعنىٰ معنىٰ؟!

أعود بذاكرتي إلى أيام شقاء الطفولة في الجبيل.. وكانت هناك امرأة مجنونة شامخة الطول عظمية البنية ترابية اللون عيناها واسعتان وأنفها بارز وشعرها «المعجوف» يتدلى حتى أطراف عجيزتها الضامرة وكانت كاشفة الشعر والوجه حافية القدمين تخرج هاذية في الشارع وتدور نهاراً أم ليلاً متى طاب جنونها... تلعن من تشاء وتفتي في الدين كما تشاء.. وتحرّم ما تشاء وتحل ما تشاء.. إنها مشيئة الجنون ولا حرج في مشيئة المجانين.. وكان اسمها «مباركة» وكنا نثيرها جنوناً على جنون.. ونحن نصفِّق خلفها بأيدينا مرددين «مباركة رطب زيزي.. واقريناتج مراكيزي» وكانت تمضي في مطاردتنا وكنا نفر منها ونمضي في ترديد ما يزيدها جنوناً على جنون: «مباركة رطب زيزي واقريناتج مراكيزي» أسأل

نفسي لماذا تطل عليّ «مباركة» المجنونة وأنا مستلقٍ على ظهري في الزنزانة.. ولماذا أردد دون أن أدري ما قاله الشاعر البدوي «المستريح اللي من العقل مسلوب». أحقاً كانت «مباركة» المجنونة المسلوبة العقل سعيدة ومستريحة في جنونها.. العقل نعمة.. أم الجنون نعمة.. نعمة العقل.. أم نعمة الجنون؟!

الجنون من الحرية أم الحرية من الجنون؟! لقد أعطت الأنظمة الحرية للمجانين وحجبتها عن العقلاء «وليس على المجنون حرج» فمن هم أجدىٰ بالحرية العقلاء أم المجانين؟!

حقاً إننا أمام أنظمة مجنونة تقدم الحرية للمجانين وتصادرها من عقول الأحرار!!

* * *

ثلاث عشرة محطة

في السجن

المحطة الأولى

طبيعة الإنسان من طبيعة الحياة في تنوّعها وتعددها وتجددها.. فقد خُلق الإنسان من طينة ماء الحياة.. واستوىٰ فيها وعُجن بترابها.. وتخلّق بحركتها حراً طليقاً في التنوع والتعدد والتجدد: في وظائف الجسد ونبض حواسه.. وفي سرمديّة حريّة نبض التنوع والتعدد والتجدد في الحياة.. هكذا استحوذ الجسد على الحرية واستحوذت عليه بمجمل حواسه الفطريّة وأحاسيسه الإنسانية.. ويوم يتوقف الجسد عن حرية الحركة في السجن.. تتوقف فوراً حرية الحواس لديه..

إن أشدّ مضاضة التعذيب على الجسد.. مضاضة تعذيب الحواس.. والجسد قد يتخشّب ويستمرئ التعذيب في أشد وسائل التنكيل عدا حواس الجسد التي تتجدد ألماً وتمزقاً نفسياً ما برح يراود ذاكرة أحاسيس حواسّها حتى بعد نيل الحرية والخروج من السجن!!

إن جروح الجسد في القمع والجلد والتنكيل تراها تُبارح

الجسد.. أما جروح حواسها فذائقتها تبقىٰ نزيل ذاكرة السجين مدىٰ الحياة!!

رفع ضابط المباحث حذاءه «القصيميّة».. وهوىٰ بها ذات الشمال وذات اليمين على وجهي وأنا مقيد اليدين والرجلين.. عُدت إلى الزنزانة دامي الشفتين.. رفعت بصعوبة قطعة مرآة صغيرة خبّأتها بعناية. فهي من الممنوعات في السجن.. نظرت إلى وجهي في المرآة أتحسس آثار كدمات لطم الحذاء «القصيمية».. لقد مضىٰ على هذا الحادث ما يقارب 28 عاماً وقد اندملت ندوب لكمات الحذاء أثراً بعد عين.. إلا أن لكماتها ما اندملت في مرآة ذاكرتي.. وتراني أستعيد أحياناً آلام تنكيل مُعاناتها النفسية والروحية!!

يوماً سألت نفسي.. لماذا طلبني ضابط المباحث في الصباح.. ولم يطلبني الساعة 12 ليلاً كالعادة؟!

ما المفاجأة؟! فالسجين يعيش ضغط أحاسيس توجس مفاجآته.. وكنتُ بين قبضة عسكري يجرني بخطوات سريعة.. والقيد يحز رقبة قدمي.. نترتُ يدي منه نتراً وقلت غاضباً.. أنت لا تخاف اللّه.. فالقيد في رجلي وأنت تخطو بي سريعاً، همهم وخفّ من خطوه!!

دخلت غرفة أضواؤها ساطعة وكان ضابط التحقيق يهز إصبعه في وجهي قائلاً: سنريك نجوم الظهر!! شبانٌ خمسة

وجوههم نضرة.. وعضلاتهم مفتولة.. يحمل كل واحد منهم خيزرانة في يده.. تقدم أحدهم ونهرني قائلاً: نِخْ أيها الشيعي الحقير.. رفعت رأسي نحو ضابط التحقيق الذي يُدرك من أنا.. قال منتشياً ومبتسماً لا فرق كلكم أولاد كلبة!! سابقاً ما كان يُفرّق ضابط المباحث بين الشيعي والشيوعي أما اليوم فيعرف الفرق!!

ارتفع صوت العسكري آمراً نخ.. نخ.. لم أفهم ماذا يريد.. دفعني فأدركت أنه يقول تمدد على الأرض.. تكالبت سياطهم على ظهري ضرباً خفيفاً هيناً ليناً غير مُبرح فأدركت أنهم يريدون الإهانة والتحقير فالشتم والازدراء يُعد نوعاً من أنواع التعذيب الشفهي الذي ينزل على النفس نزول تعذيب وتنكيل جسدي!!

سنوات مضت وانقضت دون رجعة وذاكرة وخز القصيميّة تتجدد في ذاكرة عمري!! من يُطفئ وخزها... من يُطبِّع ذاكرتها.. من يُحيل جمر وقدها في النفس إلى رماد... من يستطيع أن يستلّ شوكها شوكة شوكة من قلبي؟! لا أحد.. لا أحد.. حتى ولا قاضي غرام التعذيب!!

وذات يوم أيضاً كانت ثُلّة من جنود المباحث وضباطها.. اقتحموا حرمة المنزل وأثاروا رعب الأهل والأطفال.. وراحوا ينزلون الكتب من على رفوف المكتبة ويقذفون بها على الأرض.. يتفقدون عناوينها بكراهية

ويبصقون على بعضها ويدوسونها بأقدامهم إمعاناً وحشياً حاقداً لتأجيج عذابات المثقف النفسية والروحية تجاه أعز وأجمل وأثمن شيء لديه!! وتبقىٰ الذاكرة أبداً تلاحق عدوانيتهم على الكتاب لدى المثقف المغدور بمكتبته ومصادرة أعزّ ما لديه من كتب ومراجع ومخطوطات.. إن ذاكرة السجين من ذاكرة مكتبته التي تنتابه كلما مدّ يده إلى رف من رفوف مكتبته يبحث عن كتاب معيّن.. يتذكّر أنه من الكتب التي استولت عليها أجهزة المباحث عنوة واغتصاباً.. فيدور شريط الذاكرة تجاه جرائمهم الثقافية في حق كتاب اغتصب ذات ليلة من على رفّ مكتبة!!

يُدرك بوليس المباحث حب سجين الرأي للكتاب وتعلقه بالكتاب.. وإن الكراهية والبغضاء التي يغص بها رجل المباحث لا تفرّق بين السجين والكتاب.. وكلاهما سجينا رأي.. وهما أمام الامتهان والتنكيل سواء!! ويوم كانوا يقذفون بالكتب من على رفوف مكتبتي.. كنت أتذكّر والدي الشيخ يعقوب الذي يموت وجداً في كتاب ويعشق كتبه ويعتني بها ويواظب على تصفحها كما يواظب على أداء صلاته... وكان يُمسكها برفق ويمسحها بكم ثوبه برفق.. وكان يستحضر اللّه خاشعاً فيها برفق!!

ما الفرق بين الصلاة والكتاب؟! الكتاب صلاة.. والصلاة كتاب.. ما كنت أفرّق بين الصلاة والكتاب!! تصلي

كأنك تتصفح وجه اللَّه في متن كتاب.. وتختفي فيه بين السُحب والغمام.. متلمساً خيال اللَّه في الخيال...

طعم الكتاب على الأرض من طعم الناس... ولا شيء في الحياة ألذّ من طعم الناس.. أقول ذلك بيني وبين نفسي في الزنزانة... فيطل عليّ من كوّة الزنزانة المقابلة (أصولي) لحيته تذرع صدره وفي يده كتاب... هو في يده كتاب وأنا في يدي كتاب... هو يتلمظ طعم الكتاب في طعم اللَّه.. وأنا أتلمظ طعم الكتاب في طعم الناس... هو يباعد طعم كتاب اللَّه عن طعم الناس.. وأنا أمزج طعم كتاب اللَّه بطعم كتاب الناس.. هو في الزنزانة لقضية اللَّه.. وأنا في الزنزانة لقضية الناس... وعندما يشتد النقاش همساً بيني وبينه.. يلعنني في سرّه.. وألعنه في سري!! فيكشر عن ابتسامة صفراء.. ويقول روّح عن نفسك بالقرآن.. فأسمع صوته يأتيني رخيماً مرتلاً آيات من الذكر الحكيم!!

وكنا على نقيضي قضية... وفي نقيضي رؤىٰ وأفكار.. هم يشربون من ماء اللَّه في السماء ونحن نشرب من ماء الناس على الأرض.. ولا يدرون ولا يريدون أن يدروا.. إن ماء السماء من ماء البحر على الأرض... ويضطرب همس النقاش بيني وبينه فأتذكر الآية الكريمة «قد نرى تقلب وجهك في السماء» ويكشر تكشيرة صفراء طافحة بكراهية فاقعة في نظراته.. ويقول كفاك كفراً وتجديفاً ورجماً

بالغيب.. بل إن ماء الناس من اللّه وليس ماء اللّه من الناس.. وتختل صورة نقاش همس الزنزانة بيني وبينه فيغيب بين دفتي كتاب اللّه.. وأغيب بين دفتي كتاب (نفح الطيب) للمقري.. وكنت أشفق عليه... أتراه يشفق عليّ كما أشفق عليه؟!

* * *

المحطة الثانية

مشقة ألم الجسد ومضض معاناته أمام جَلْدِ ضابط المباحث... يأخذ سقفه المحدد في فري أديمه وتمزيق لحمه.. فإيقاع السوط يشق سطح الجسد ولا يتوغل في عمقه... ولا يمكن تجريد الجسد من حواسه المضمرة في الروح!!

وإذا كان لمشقّة عذاب الجسد سقف محدد. فإن الروح لا سقف لمشقة عذاباتها.. لأن تعزيز سوط ضابط المباحث يشق أعماق الروح ويخترق ذرات ذراتها النفسية ويستوي فيها ألماً مُبرحاً يمضُّ جميع حواس الجسد.. ويُصبح العذاب عذاب الروح في عذاب الجسد..

ولذا فإن قُضاة التعذيب وأئمة فقهائه وفلاسفة وجهائه

الماديين والروحانيين.. يتفقدون الأبعاد النفسية والروحية لدى السجين ويلجأون إلى معاينة مقوماتها من أجل ترويضها والغدر بها ضمن آليّة الترغيب والترهيب.. فإذا وقعت النفس في يد ضابط المباحث وقع الجسد بلا مقاومة وتهافت الكثيرون من سجناء الرأي في قبضة ضابط التحقيق.. مدركين أن النفس في فجورها وتقواها: «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها».

إنهم يستلهمون فجور النفس لترويضها على قاعدة من الترهيب والترغيب.. فتقوىٰ النفس تحرّم تعذيب نفس السجين والتنكيل بروحه.. أما فجور النفس فهو أداء هذا التعذيب والتنكيل.. وما يمتهنه ضابط المباحث من جرائم في حق سجناء الرأي!!

ليس الجسد وحده الذي يفيض بدأب الحركة.. وإنما حواسه فيض حركة دؤوبة في السمع والبصر والشم واللمس والذوق.. ويوم تُطبق الزنزانة على السجين وتقيد حركته.. تطبق أيضاً على حواسه وتبلّد وظائف حركتها وتدعها تدور بلا معنىٰ بين جدران زنزانة رثّة بليدة!!

إن كل حركة في الزنزانة.. تلتقطها آلة تصوير (كاميرا) معلّقة في السقف تراقب حركة السجين وتحصي أنفاس حواسه وتعري أدقّ خصوصياته وتنقلها على شاشة تلفاز في مكتب ضابط معني بهذا الأمر... إن أشدّ مشقة على عذاب

النفس.. التجسس على خصوصية النفس في التنصت بالصوت والصورة في الزنزانة.. وتعرية كوامن ودقائق أحاسيس الجسد.. فالسجين الذي يتفرد في عذاب زنزانته.. يخضع إلى عذاب مراقبة نفسية ممضة في أدقّ وجدانياته الروحية والنفسية!!

ينقر عليك الجندي باب الزنزانة ناهراً مؤنباً: «تراك ما صليت.. قم صلّ» وفي ذلك ما يثقل النفس ويضغط على مفاصلها عندما تصبح العبادة في إمرة جلواز يمارس أشد أنواع التعذيب والتنكيل. ولا يخجل أن يأمرك إلى الصلاة!! كأن التنكيل والتعزير لدى ضابط المباحث (...) تباريح تهدج وعبادة وصلاة؟!

مشقة الألم لا تترسّب في زنزانة السجن.. وإنما تنسل حرّىٰ إلى بيت السجين فتحل ضيفاً كريهاً بليداً بين أهله وأولاده... نبض السجين في الزنزانة من نبض أهله وأولاده.. يتفقدهم في الحلم ويتفقدونه.. يتعايشون معاً في الذاكرة.. وكأنهم في زنزانة واحدة.. وعندما يحلم في الليل يقوم في الصباح.. ويسأل نفسه ترى هل التقينا حلماً في الحلم؟!

في الشهور الثلاثة الأولى: من الزنزانة إلى ضابط التحقيق.. ومن ضابط التحقيق إلى الزنزانة في تكتّم وحراسة مشدّدة!!

إنه امتحان الترغيب والترهيب في مادة: تقوىٰ النفس وفجورها.. هكذا يوازي سجين الرأي في نفسه بين الخيانة والأمانة أمام ضابط التحقيق!!

وإن من معاناة النفس وأشدها أيضاً تمزقاً وألماً.. أن تكون وجهاً لوجه أمام رفيق درب «باسل» سحق التعذيب آدميته ومرّغ كرامته.. وراح يزحف ذليلاً منكسراً في نكير اعترافه (...) كسر النفس وإخضاعها وتحطيم كرامتها: انتصار ضابط التحقيق في الفجور على التقوىٰ في نفس السجين!!

ثقافة التنكيل والتعذيب ثقافة ترسّبت دلائلها الفكرية والفلسفية كوظيفة طبيعية في وجدانية ضابط التحقيق.. ومهما بلغت مهارته الانتقامية والقمعية فإنه يستدعي التحدي في نفسه لبلوغ ذروة أساليب القمع والإرهاب والتنكيل في إذلال الجسد وسحق الروح وكسر الإرادة الإنسانية لدى السجين.. وهو يُدرك أن المجتمع ينظر إليه بريبة واحتقار.. فيُخفي حقيقة جرائمه خلف اسم مستعار. ويقبض بدل سمعة فوق راتبه من وزارة الداخلية!!

المحطة الثالثة

كثيرون أولئك الذين يدخلون ويخرجون من الزنزانة... يتركون بصماتهم على جدرانها... وتترك بصماتها في

تفاصيل نفوسهم.. خطَّ أحدهم اسمه واسم قبيلته على الجدار.. وناشد اللّه آخر شعراً يطلب نجدة الخروج، وكتب آخر متفائلاً: ولا بدَّ للّيل أن ينجلي ولا بدَّ للقيد أن ينكسر.. واستنكف فوراً مُتشائماً وهو يخاطب نفسه: [ما ظنتي يا خوي ياتي الفرج قيدهم قوي.. وليلهم طويل.. والله على الظالم حلمه حليم...!!] وتوجه آخر إلى زوجته بحرارة وشوق: انتظريني (...) فإني قادم!! وجدّف أحدهم حتى فاض كفراً... وكفر آخر حتى فاض تجديفاً.. وهو يقول: أنا الغريق فما خوفي من البلل!!

كثيرة هي عناوين النفوس المعذّبة التي علّقها أصحابها على جدران الزنزانة وتركوها للآخرين يتصفحونها!!

أضع رأسي على مخدّة قذرة.. فقد أنهك التفكير أعصابي.. أُمغِّطُ عضلاتي متمدداً... ينقر النوم أطراف عيني.. أسمع هَمْيَ المطر من بعيد.. يفرح قلبي.. أتصوّره يمدُّ يده يُلملم نفوس المساجين ويغسلها بماء السماء!!

تطل عليّ «نعيمة» مبتسمة تفوح برائحة القرنفل والزعفران... ترمي نفسها عليّ مبللة بندىٰ زفير الفراق نغُط بين السماء والأرض في برزخ شهوة الحياة.. أصحو مفزوعاً على صرير باب الزنزانة من فرط حلمي مُبللاً بنزوة الندم!!

يفتح الجندي نافذة الزنزانة.. يطل منها مُكفهراً «صليت.. تراك ما صليت.. قم صل..» قلت بيني وبين

نفسي: صلّيت أجمل وأروع صلاة في نومي!! فتح الجندي باب الزنزانة.. ذهبت إلى الحمام أغتسل في ذاكرة وجدانيّة حلمي مشدوداً بإيقاع «نعيمة» ورتم ميلوديا أنشودة:

سمرٌ وبُشرى وثباتٌ

في الدنيا..

وهديلٌ كالحمام!!

السجن فصل قهر وتنكيل تعسفي للحرية ودمٌ بليد قميء يجري في عروق السجّان.. وهو مظهر خوف شديد لدى الأطفال الذين غيّب السجن آباءهم.. والطفل بغريزة صبوة طفولته تتنامل فرائصه اللدنة في رعب وخوف شديدين.. وهو يدخل السجن لزيارة والده.. وتراه يرتعش خوفاً كالمذبوح بين يدي أمه.. فتترسَّب عُقدة الخوف في نفسه وتنمو معه حتى الكبر!! وقد اختلط أمر ابني ثابت وهو «يكفخ» بيديه.. ويرفس بقدميه ويصيح بأعلى صوته محمولاً بين يدي نعيمة تقول له هذا بابا... فيصرخ ويُشيح بوجهه عني.. فقد شابت عوارضي وغارت عيني في مآقيها.. وضمر كاهلي فاختلف لديه شكل أب لم يعهده هكذا من قبل!! اقتربت منه.. فاتّسعت حدقة عينه ولانت عضلات وجهه واشرأبت غريزة طفولته.. وراح يتفقدني من جديد وما لبث أن اندفع رامياً بنفسه في أحضاني!!

كل شيء في الطفل رقيق وشفاف.. وأرق ما في الطفل

لغة شفافية النفس لديه.. فهي نسيج لغة مُرهفة تستجلي ضمير الروح لدى الآخر.. وتكشف أسرار النفس!!

ويوم أن ألقي القبض عليّ ودُفعت في سيارة المباحث.. كان ابني بشار يتدحرج مُتمزقاً على الأرض.. وهو يصيح بأعلى صوته: بابا.. بابا.. ويجري خلف السيارة وأمه ما انفكت مفجوعة تلاحقه للإمساك به.. هو يستشف الفزع في عيون الآخرين ويكتشف بحساسية غريزية مُفرطة وفي عمرٍ مُبكّر بأن أذىٰ السجن يدهم حرية والده!!

ذاكرة الأطفال تنفرد ببراءة خصوصيتها البحث بلا توقف في فضاء تخيلات طفولية غرائبية في البحث عن أبٍ غيّبه السجن.. وهي بطبيعتها الغرائزية الشفافة تقرأ مستحيل ما يعجز عنه الكبار.. وتجسّد آلام وعذاب الأب السجين في آلامها وعذاباتها!!

تُثقل «نعيمة» الأطفال بالألعاب لإلهائهم وإراحة ذاكرتهم من عناء الهجس في والدهم.. فيتشكلون في هذه الألعاب ومن هذه الألعاب يشكلون فرقاً عسكرية لفك أسر والدهم وتحريره من السجن!!

جرائم السجون وتنكيلاتها الجسدية والنفسية لا تنحصر في سجناء الرأي وحدهم.. وإنما تأخذ مُضاعفاتها الروحية والنفسية في الأهل والأطفال!!

قيدُ السجن ليس أهون من قيد سجن المنع من السفر..

الإقامة الجبرية في الزنزانة شأن عذاب وتنكيل.. كشأن عذاب وتنكيل الإقامة الجبرية في الوطن.. فالقيد في الزنزانة كقيد المنع من السفر وكلا القيدين: قيدُ تعسف في مصادرة الحرية!!

فرحت وفرح الأهل والأطفال بالخروج آنذاك من السجن.. وكأننا خرجنا جميعاً من السجن.. وانتابنا حزن لعنة السجن... بعد أن علمنا أنني ممنوع من السفر وكأن قيد الزنزانة ما برح يشدُّ قدمي في عمق الوطن!! وتذكرت بحزن نجيب الخنيزي وعلي الدميني اللذين ما زال القيد يشد قدميهما في عمق الوطن.

المحطة الرابعة

وجهاً لوجه أمام ضابط التحقيق يتشكل جداراً نفسياً كريهاً قاتماً متوحشاً.. فتتنافر ضرباب النفس محاولة الانغلاق والمراوغة.. وكلما فتح ضابط التحقيق جُرحاً نازفاً بأظفاره في حواس الجسد.. لملمت النفس نفسها مُتدثرة بكلمة لا أدري!!

لا أدري.. من أكثر الكلمات المثيرة لغضب ضابط التحقيق.. ويشتد عسف التعذيب وتشتد ملاحقة كلمة لا أدري.. بتلفيق البراهين والأدلة: إكذب.. إكذب ولفّق وزوّر وافتر على نفسك وعلى الآخرين.. ولكن لا تقل لا أدري:

إنها كلمة تحرق أعصاب المحقق وتحوّله إلى وحش مُفترس!!

إن مقتل ضابط التحقيق وفشله وانهزامه يتحقق أمام الإصرار على كلمة لا أدري.. يومئذ تذكّرت (معين بسيسو) «فأنت إن نطقت مت.. وأنت إن سكت مت.. قلها ومت». فشمخت النفس بكبرياء المبدئية.. وتنامت مقاومة: لا أدري... ونفسي تُحدث نفسي في همس فأنت إن سكت مت.. وأنت إن نطقت مت قلها ومت.. ويبلغ ضيق النفس بالنفس في قبضة التعذيب.. حتى تُصبح الحياة في موت الحياة.. وموت الحياة في الحياة!! وتذكّرتُ القاص المصري عبد الرحمن الخميسي في قصته القصيرة (قمصان الدم) وكان الدمُ المصري يصرخ في وجه الجلاد... قائلاً: لن نموت!! وقلت بيني وبين نفسي: كلهم على قاعدة تعذيب واحدة في الأردن عند بسيسو وفي القاهرة عند الخميسي وأينما وجهت وجهك في سماء الوطن فثمة تعذيب وتنكيل!!

انتفضتُ أمام قاضي غرام التعذيب والتنكيل.. وصرخت في وجهه.. دون أن أعي نفسي.. وهو يُدمي عصاه جلداً من دمي: لا أدري.. لا أدري.. لا أدري.. صعق من ترداد كلمة لا أدري.. وخرج من مكتبه وتركني وحدي.. هزّتني نفسي أن أفتش في كومة الأوراق المتناثرة على مكتبه.. وتراجعتُ بعد أن تذكّرت آلة التصوير «الكاميرا» تمطُّ رقبتها من على الجدار!!

ذاكرة السجين لا تكف أبداً عن نبضها.. وكانت تستحضر الزوجة والأولاد والأقارب والأصدقاء.. وتتفقدهم واحداً.. واحداً في الزنزانة وهم خارج الزنزانة!!

ويوم أن يغط السجين ليلاً في نومه تطوف به غيوم الأحلام في باطن وعي ذاكرته وتُفعم روحه بعبير الزّوجة والأولاد.. ويصبح غيمة عطر تذريها الرياح خارج الزنزانة!!

وعندما يفيق يغمض عينيه علّه يمضي في حلمه طليقاً خارج الزنزانة.. إلّا أن الحلم لا ينقلب واقعاً في الحال!!

أصيخ السمع إلى نقر باب الزنزانة، يطل الجندي فجراً من كوّة الزنزانة قائلاً: «صلّيت.. تراك ما صلّيت.. قُم صلِّ» يفتح باب الزنزانة فأذهب إلى الحمام للاغتسال.. أعود إلى الزنزانة.. أفرش سجادة الصلاة... ولا أصلي.. فالعبادة إرادة حرّة وليست بالقمع والتجسس عبر آلة التصوير!!

يرتفع الصراخ من الزنزانة المجاورة الأخرى.. إنه عبد الرحمن البهيجان أعرفه من صوته.. لقد أقفلوا مقصّ الكلبشة على كفّيه وعلق بها في قضبان كوّة باب الزنزانة وأصبح واقفاً على قدميه لا يستطيع الجلوس وكان يصرخ من الألم والتعب بعد أن طال مكوثه مُعلقاً «بالكلبشة» وكان عويله وصياحه وتظلمه وشتمه وتجديفه يشق عنان الزنازين إلى أن انهار معلقاً من كفين داميتين وقدمين متورمتين.. فأتى إليه

أحد الجنود مسرعاً وفكّ كفيه من الكلبشة وتركه مُلقىً على الأرض يئن في زنزانته!!

وفي هدأة ليل السجن.. عندما يغط جنود السجن في النوم.. يبدأ همس الحديث بين السجناء فالزنازين متلاصقة بحميميّة بلهاء... فيبدو الحديث شيقاً مثيراً حول من عذّب ومن أطلق سراحه ومن اعترف ومن صمد.. ومن قدِمَ حديثاً إلى السجن ومن اختفىٰ ومن قابل أهله في الزيارة!!

وفي حجرة الحمام ومغاسلها وفي أماكن مُعينة فيها.. يتغلّب السجناء على الكثير من الممنوعات مثل الأوراق والأقلام وأجهزة الراديو الصغيرة والهواتف النقالة والأدوية وأقراص الفيتامينات.. ولا أحد يتصوّر القدرات الخارقة لدى الإنسان الذي أُحكم سجنه في الزنزانة في الوصول إلى مُبتغاه على الرغم من شدّة الرقابة!!

فالإنسان صندوق من مشاعر وأحاسيس وأفكار مغلقة.. والظاهر ليس تماماً كالباطن.. وقد يكون الباطن نقيضاً للظاهر!! إن مأثرة: «للّه في خلقه شؤون» ترتبط بالباطن وليس بالظاهر.. وإن ميل الظاهر خلاف ميل الباطن!!

الباطن يحدد الظاهر وليس العكس.. وإن حقيقة الأشياء في باطنها.. والدِّين في حقيقة باطنه وليس ظاهره.. الباطن يقترب همساً من الباطن الآخر.. ولا يُعير أذناً للظاهر..

الظاهر يمكن أن يخدع ويخون أما الباطن فلا يعرف الخيانة!!

وكان ما يحققه السجين في تذليل الكثير من صعوباته في همس علاقة باطنية مشتركة بينه وبين جندي السجن.. حيث تتفتح أمامه جميع الممنوعات والمحرمات!!

المحطة الخامسة

إن التنكيل بالسجين وتعذيبه والاعتداء على كرامته والتفنن في إخضاعه قسراً وإذلاله بمختلف الوسائل الوحشية لها ترسبات عميقة في نفس السجين.. تبقىٰ تلاحقه وتفترس ذاكرته مدى الحياة!!

وهناك الكثير من السجناء بعد انتهاء مدة حكمهم أو بعفو رحمة من شيم جهة كريمة منّت عليهم بعفوها بعد أن حفرت الأحقاد والكراهية في نفوسهم.. وكنت أسمع أحدهم يُهمهم في كراهية ساخطة ونحن نتنسم الحرية خارج أعتاب السجن: اللئام سينالون عقابهم.. وكان آخر يرد.. إن سمعوك أعادونا.. يضحك آخر ويقول: لا يهم تعوّدنا ذلك!!

اغتصاب الفكر.. اغتصاب الجسد.. اغتصاب الكرامة.. اغتصاب الحرية: إنها إشكالية الحاكم والمحكوم وجهاً لوجه في سجال المساءلة في السجن!!

من يسأل من؟! فأسئلة الإدانة التي يوجهها السجّان

للسجين.. قد ترتد من السجين إلى السجَّان.. وكثيراً ما ترتد. والسجان يردها بالعنف لا بالحجة والأدلة. وقد تكون الأدلة المادية ضمن حرية الرأي والرأي الآخر.. وعقيدة السجين السياسية لا تنكرها وفق حق المواطنة في الحرية!! فتصبح قرينة إثبات جريمة لدى السجّان.. ويدخل العنف على خط السجال الفكري ويُخضع السجان السجين في عملية عنف بربرية في اغتصاب الروح والفكر والجسد بالقمع والإرهاب والتنكيل وفي ارتكاب جرائم لا إنسانية لا تخطر على بال أحد.. إلا من ذاق عذاباتها في السجن.. وتبقىٰ ذاكرة مأساتها جرحاً ينزف في نفسية السجين طوال حياته!!

فالسجن يغتصب حركة الجسد ويشوّه جوارح حرية نبض ذاكرتها في السمع والبصر واللمس والشم والذوق وتصبح ذائقة الجسد في حواسه.. ذائقة رطوبة لعنة سجن لا تتجاوز سعة زنزانته مترين في متر طولاً وعرضاً.. والسجين لا يتنسم ضيق زنزانته بقدر ما يتنسم عذاباته النفسية والجسدية التي توَحّشَ السجان في تقنية ابتزازها وإذلالها!!

إن النظام الاجتماعي الذي يقترف التنكيل والقمع والإرهاب بحق مواطنيه في السجن.. نظام لا يستطيع أن يُعيد ثقة سجنائه بفرمان: عفا اللّه عما سلف... فما سلف ليس متكافئاً بما لحق بالسجين من سجَّانه... بل كان ظلماً

واضطهاداً وعذابات نفسية من طرف ضد طرف.. فكيف يستقيم عدل عفا اللّه عما سلف؟!

وأحسب أن تعويضاً مادياً وأدبياً واعتذاراً رسمياً قد يضع مقولة عفا اللّه عما سلف في موازين عدالتها..

إن ما لحق من جرائم جلد وقمع وتعذيب واعتقال وسجن ومنع من السفر وتجريد من الجنسية ليس ضد شبيبة الإرهاب وأمرائها.. وإنما ضد نشطاء الرأي الاجتماعي والفكري واليساري والشيوعي في الخمسينيات والستينيات والثمانينيات.. ولا يمكن تنقية نفوسهم بفرمان عفا اللّه عما سلف وفي جلسات النصح والنصيحة والتوبة والتتويب وقد كشف بيان وزارة الداخلية السعودية عن 85 مطلوباً جديداً متورطاً في الإرهاب وأن هؤلاء قد غادروا المملكة إلى الخارج أو ما زالوا مختفين في الداخل.. وهم لا يزالون على ما هم عليه من عقيدة الإرهاب في تكفير وإقصاء الآخر.. ولم يتزحزحوا قيد أنملة عمَّا هم عليه في البحث عن الشهادة في تدمير المجتمعات المدنية الكافرة على الرغم من جلسات المناصحة التي تلقوها (بعناية) من جهات رسمية في إصلاحيّة الحاير وغيرها من إصلاحيات مناصحة أهل التكفير والإرهاب.. ولا يُخفي البيان أن بعضاً من هؤلاء الـ 85 إرهابياً هم من العائدين من معتقل غوانتانامو الذي تألق في جرائم قمعه وتنكيله وتعذيبه وقام بإجراء تجارب

نفسية وجسدية على المعتقلين من أبرياء وإرهابيين.. ويعتقد بعضهم أن إنشاء سجن غوانتانامو الرهيب كان خطأً فاضحاً وقد أدّى إلى ازدياد الحركات الراديكالية والإرهابية.. ويرى مسؤولون في مكافحة الإرهاب: «إن الظروف الصعبة التي يعانيها المعتقلون وشعورهم بفقدان الأمل ولّد شعوراً بالغضب وأدى إلى مزيد من التطرُّف» وتأتي الوقائع لتؤكد أن وسائل التعذيب والقمع والتنكيل في السجن لها انعكاساتها السلبية وقد يتجدد النشاط لدى السجين بعد إطلاق سراحه.. حتى ولو تظاهر بالتمسكن والتوبة.. والأمثلة كثيرة من بعض الذين أبدوا توبتهم وعندما خرجوا من السجن عاودوا ممارساتهم الجهادية الإرهابية على طريق الشهادة.. وكان أحد معتقلي غوانتانامو الذي أفرج عنه في الآونة الأخيرة.. أصبح قائداً للقاعدة في اليمن وقد ظهر على شريط فيديو متوضئاً مبتهجاً على طريق الشهادة!!

المحطة السادسة

تتضخم الأشياء لدىٰ السجين وهو مطروح على ظهره في الزنزانة... وعيناه معلقتان في سقفها.. فيرىٰ خيالاً ما لا يراه الغيب... أحاسيسه تُصبح رقيقة مرهفة كقشور البصل.. تتبعثر متطايرة إذا دانتها هبّة نسمة.. أو نفخة هواء... فالهمسُ يُصبح لديه صراخاً.. والنملة تصبح لديه فيلاً...

وكل ما لا يُعرف في الغيب يُحلّق به خيالاً. . فيتدانىٰ لديه واقعاً ملموساً. .

«الكلبشة» تحز الكفين والقيدُ يشد القدمين والزنزانة تطوّق الجسد. . فمن يستطيع أن يقيد الروح؟! لا أحد. . لا أحد!! فهي تأخذ بإيماءة الكفين. . وخطو القدمين. . وحراكاً جسدياً متململاً يمضُّ صمت الزنزانة. . . والفكر المشغول بالمبادئ يغط في التاريخ يجسد حضور السجين في الزنزانة متوثباً وهو بين الجماهير يشق الطريق رافعاً راية الوطن إلى أزل الموت أو إلى أزل الاشتراكية!!

يتقلّب السجين في الزنزانة. . والزنزانة تتقلب بالسجين. . كل الجوارح تتقلب بين اليأس والأمل. . . وتخلد إلى النوم مرهقة متعبة بين ألم اليأس. . وألم الأمل. . ما أشد ألم الأمل. . . فالأمل في وعيه. . واليأس في لاوعيه!! وكان اللّه في وعي ولاوعي السجين. . وهو يتفقد قضاء قدره بين اليأس والأمل من كوّة الزنزانة بعيداً. . بعيداً إلى زرقة السماء!!

في الليل تهمسُ الزنزانة إلى جارتها الزنزانة. . . فالزنازين تتهامس وتتلاصق في السجناء ومع السجناء. . وكأن الهمس ينسج ليل أوجاعه في أوجاعهم فتضيء أحزان نفوسهم ألماً وأملاً وكانت قصّة كل واحد منهم أشبه بمحال الخيال. . وكنت أسأل: أيتحوّل مخيال السجين إلى خيال؟! وكنت لا

أجيب.. وأسأل أيضاً.. ما المخيال وما الخيال؟! الخيالُ مأخوذٌ بالمخيال.. أم المخيال فمأخوذ بالخيال؟!

في خلوة الزنزانة وفي ليلة قدر قيام ساعتها.. يتماهىٰ الخيال في المخيال ويصبح السجين جسد وعي خيال ومخيال في آن واحد!! فيتبدد وعي الواقع إلى هذيان في اللاواقع... وكنت أحسُّ بدبيب هذيانه وهو متمدد على الأرض بجانبي في الزنزانة وهدير هذيانه يوجع القلب.. فأقول له تعلل بكتاب أو تحوّل إلى متن كتاب واقرأ... يقول هاذياً سئمت قراءة الكتب الصفراء... (هم لا يأتون إلا بالكتب الصفراء) أقول له كُتب صفراء خيرٌ من كتب الهذيان في الفضاء...

هو يأخذ القرفصاء على الأرض.. يفرد لعبة «الدومينو» بيدين مرتجفتين ويقول متأففاً: ألم تتعب من قراءة الكتب أرجوك العب معي «الدومينو»، يشفق قلبي على قلبه.. أتقرفص أمامه.. يبتسم منتعشاً، يضمُ قطع «الدومينو» في كفه، يدفع بعلبة «البسكويت» صوبي بعد أن راح يقرض قطعها المكعّبة بلذّة ونشوة!! هو مأخوذ بقطع «الدومينو» يصفّها قطعة.. قطعة ويديرها وفق أصول لعبتها وأنا أنازله في هذه اللعبة.. وأفكاري تلاحق (ابن تيميّة) في شيء من أجزاء سلسلة كتبه التي تناءت أفكاري في منتهىٰ أفكارها وتهاجست تصوراتي مُشرئبّة خارج فحواها.

كان اسمه (ناجي) ولأنه العامل الوحيد بيننا كنا نسميه الطبقة العاملة.. وكنا ثلة من المثقفين نحلم بماركس والاشتراكية.. أدخلونا السجن ووضعوا القيود في أيدينا.. وقالوا دعوا ماركس يأتي لفك قيودكم.. ولم يأتِ لا ماركس ولا أبو هريرة لفك أسرنا...

أهل القطيف يكثرون من أسماء (علي) و(حسين) و(جعفر) و(مهدي) يبتسم (ناجي) بعد أن هزمني في لعبة «الدومينو» قائلاً: أرادوا باسمي أن أنجو.. وما نجوت.. وها أنا بينكم تدخلون رؤوسكم في الكتب ولا تخرجوها إلّا بعد أن تنزف عيونكم دموعها من التعب!!

يسأل (ناجي): هل اللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين؟! أمسح بكفي جبيني وأقول لا شيء انكتب عليه!!

يقول: لا يرىٰ الذي كُتب إلّا من كتبه.. أقول إذن لماذا كتبه؟! يقول: «ليرىٰ أيكم أحسن عملاً» أصمت وأدير رأسي بين دفتي كتاب.. مُتجنباً مغبّة جنَف الإرجاف بالغيب!!

يضع (ناجي) رأسه على باب الزنزانة وهو ينقر حديدها هاذياً مُدمدماً بشفتيه وهو يهرش شعر رأسه!!

المحطة السابعة

«ناجي» هو «روزنامتي» في الزنزانة يلاحق دقائق سيرورة مُضي أزمنتها باعتبارات نفسية. وكنت أترك زمن الزنزانة

يمضي بي دون أن أعيره بالاً... أدخل رأسي نهاراً في كتاب وفي الليل أغط به غطيطاً على شخير «ناجي».. أما ناجي فإنه عكسي تماماً يمضي في زمن الزنزانة ولا يدع زمنها يمضي فيه.. متابعاً أوقاتها ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة وثانية بثانية.. هو ينفخ متأوهاً بملء رئتيه ويلطم جبينه بكفيه ويهذي في إيقاع نفسي بالمهدي المنتظر ليمدّ يده المباركة من كوّة الزنزانة ويخرجه منها... أهجس به سارحاً في هذيانه... أهز كتفيه بيدي وأقول له ترجّل عن هذيان الانتظار لن يأتيك المهدي ويخرجك على عجل.. يبتسم بخبث ويقول ولا ماركس الذي اختطفتم به طيف أرواحنا!! «ناجي» من سربنا ومن الخميرة العمالية الطليعية التي نستشرفها وتستشرفنا!!

وكانت الزنزانة واقع ضنك وانكسارات نفسية ووجدانية وقمعاً وتهديداً وخوفاً وإرهاباً.. أدّت بالكثيرين منا إلى انهزامات وجدانية ونفسية واستوت نزعاتها الارتدادية تظهر لدى هذا بشكل ولدىٰ ذاك بشكل آخر.. كلّ يُهندس انهزاماته الوجدانيّة على طريقته الخاصة.. وبأسبابٍ تغلفها ثورية زائفة..

يقول ناجي: أتدري كم مضىٰ علينا من الزمن في الزنزانة... أهز رأسي بالنفي.. يقول: خمسة شهور بالتمام والكمال وهو ما يوازي بالتمام والكمال عمر ابني «مهدي»، ففي اليوم الذي كان مهدي يضرب بقدميه في بطن أمه يطلب

الخروج إلى النور.. كانت جلاوزة الداخلية تدفع بي مقيداً إلى ظلام الزنزانة.. أفي ذلك مؤشر دلالة في غيب ما غاب عنا: ابني يخرج إلى نور الحياة... وأنا أدخل ظلام الحياة في السجن!! لا أردُّ فقد كان كتاب «تهافت التهافت» لابن تيمية مسيطراً على تأملاتي.. ينقر ناجي بأصابعه حديد الزنزانة مبتهجاً ويقول: صباحاً موعد الزيارة.. سوف أرىٰ ابني «مهدي» لأول مرة.. أتخيّل شكله أتخيل استدارة وجهه.. أتخيل طراوة جسده. أتخيل تكويرة أنفه.. أتخيل سواد عينيه وهو يتراقص في حضن أمه. أقول لناجي: ما أعقد أسرار الحياة طفل يخرج إلى النور ينادي بالحرية وأب يدخل زنزانة السجن باسم الحرية.. أسِرُّ الحرية في الحياة.. أم سرُ الحياة في الحرية؟! أجدل الحرية في الحياة.. أم جدل الحياة في الحرية؟! الحرية من الحياة والحياة من الحرية.. والسجّانون يقيدون حرية الإنسان الذي بها ينشد الحياة.. ويمضي بحياته وحياة الآخرين إلى حرية الحياة... خلاف السجّانين الذين يمضون بحياتهم وحياة الآخرين إلى الموت وعدم الحياة!!

السجن لا يُطبق بظله الثقيل الكريه الممل على السجين وحده وإنما على أرواح الأهل والأقارب والأصدقاء الذين يستجرون بأرواحهم ظله المقيت وهم خارج السجن.. إن ظل كراهية السجن من ظل هذه الكراهية المقيتة لدى السجّان

المدرّع بتقوىٰ القمع والإرهاب والاضطهاد.. وليس بتقوىٰ اللّه!! يُصيخ «ناجي» بشفافية سمع وانتباه إلى ما أقول.. مُبتهلاً صباح غدٍ يضم ابنه «مهدي» ويفيق متسائلاً: ما التقوىٰ؟! لا تقوىٰ إلّا تقوىٰ الحرية!! استغلال تقوىٰ اللّه في تقوىٰ الإرهاب والقمع والاضطهاد: هرطقات إسلامويّة.. لا شيء إلّا تقوىٰ الحرية.. فتقوىٰ الحرية من تقوىٰ اللّه.. والعكس ليس صحيحاً في مطلقه!! لأن في الإمكان استغلال تقوىٰ اللّه لأغراض دنيوية وسياسية.. ولكن من غير الممكن استغلال تقوىٰ الحرية لأغراض دينية.. يقول ناجي أفي ذلك زيغ وإرجاف وجنف؟! أقول لناجي لا عليك.. إن «ابن عربي» علامة المتصوّفة وأحد أئمتها العظام.. يستجلي تقوىٰ الناس في تقوىٰ اللّه.. ويفعم روح اللّه بروح الإنسان.. ويسمو بروحه فضاء قصياً.. قصياً.. حتى يلامس به حريته في ملكوت اللّه.. فاللّه في عقل الإنسان حرية.. يستجلي تقواها في حرية الإنسان.

إن زج نشطاء الحرية ورواد بهائها في صورة اللّه في السجون وتكبيلهم بقيود الذل والقهر والهوان.. والقيام بقمع وازدراء مفاهيم تقوىٰ الحرية في نفوسهم وشلّ معتقداتهم الفكرية والإنسانية واقع زيف وافتراء في غلغلة تقوى الإرهاب في تقوىٰ اللّه!!

أفيقُ على حلم أو رؤيا فيمن يُحدثني: بأن جمالية الحياة

في متناقضاتها.. في حلوها ومرها.. في سجنها وفضاء حريتها في تقواها وفي كفرها.. في فقر فقرائها وفي ترف مُترفيها.. في تلاوينها وتعدد أصباغها... «صبغة اللَّه ومن أحسن من اللَّه صبغة» ولا أتصور حياة في سكون لون واحد!! لِنُلوّن الحياة ونتلون بها ولتضجّ بنا الحياة... ولنضج بها.. ما أجمل وما أطعم ضجيج الحياة من أجل تقوىٰ الحرية في تقوىٰ الإنسان على وجه الأرض!!

المحطة الثامنة

في غُرّة فجر الزنزانة.. أفيق صباحاً باكراً.. أهناك ما يُثير قيامك مبكراً.. أقول لنفسي محتجاً!! فأرجع بالذاكرة إلى الوراء... فأعجب أن قيامي غرة الفجر. كانت عادة تلازمني منذ الصغر.. وما انفكت عني وما انفككت عنها حتى في الزنزانة.

فالأطفال كالعصافير تتقافز عيونهم بحثاً عن النور في غرة الفجر... ما أطول البحث في النور!! ها.. غُرّة الفجر تلازمني بحثاً عن النور في الزنزانة.. وفي عمرٍ مديد يشق صدر الثمانين!! وها.. أتذكر غرة فجر طفولتي في دفء صوت الديك يأتيني ـ أيضاً ـ شجياً في غُرّة فجر الزنزانة فأصحو أتلمس خبز أمي في خبز الوطن.. فيضرب رأسي جدار الزنزانة.. فأضعه بين دفتي كتاب أصحو غرة الفجر

أخطو على أطراف أصابع رجلي كي لا أعكِّر مزاج نوم رفيق الزنزانة «ناجي» أتخيّل النور خارج الزنزانة يُشعل فتيل شموعه: شمعة.. شمعة ويدسها شمعة.. شمعة في قلب الظلام!!

أفيق على متخيّل مخيّلتي وأنا أتصوّر النور ينفذ سهاماً من نور في قلب الظلام فأتذكر قول ديكارت بأن المخيّلة: (سيدة الخطأ والضلال) فأخرج نفسي من ضلال المخيلة وأضعها بين دفتي كتاب.. وكنت أتلمس تعب عيني من القراءة في دموعها.. فألقي بدفتي الكتاب على وجهي وأغمضها وأعود أتسكع في مخيال مخيلتي دون أن أعير ديكارت شأناً بأنها «سيدة الخطأ والضلال» فالمخيلة تُخرجني من الزنزانة خيالاً إلى ضجيج الحياة في الطبيعة والفكر والمجتمع.. وكنت أقطع في مخيلتي مسافات الكيلومترات متمدد التخيل ذهناً وذاكرة وخيالاً في قلب الزنزانة!! يفتح ناجي عينيه.. أقول له صباح الخير.. يُطيل النظر صامتاً دون أن يرد.. ثم يفيق على نفسه مبتسماً ويقول: صباح الفل.. أقول له أفل في الزنزانة؟! يردُّ ولا صباح ولا خير في الزنزانة!! يقول «ناجي» الفطور «شكشوكة» لم أكمل جملتي «كيف دريت» إلّا والجندي يُدير مغلاق باب الزنزانة.. وكان الفطور شكشوكة.. «ناجي» يُخالس حركة الخارج من ثقب صغير في طرف باب الزنزانة.. ويتوجَّد خارجها في مخيّلة أحلامٍ

خرافية التصور تنتابه في الليل وفي الصباح يطلب مني تفسيرها.. وكنت أعيد عليه شيئاً من مخزون الذاكرة حول تفسير «ابن سيرين» وما في كُتب تفسير الأحلام لدى الصينيين: إذا رأيت دماً في الحلم بطل الحلم... وإذا سقطت لك سن فإن أحداً من أقاربك سوف يعاجلُه الموت.. وإذا رأيت سمكاً في البحر فالفرج يلوح لك من بعيد.. وإذا اصطدت سمكاً فقد قرب الفرج.. أما إذا أكلت سمكاً في الحلم فقد أصبح الفرج منك قاب قوسين أو أدنىٰ!!

وذات صباح استفاق «ناجي» طَرِباً مبتهجاً في رؤياه: وهو على ساحل البحر يشوي ويأكل سمكاً.. وفي ليلة من ليالي ذلك الأسبوع الذي حلم فيه أنه يشوي ويأكل سمكاً على ساحل البحر.. اقتاده ضابط التحقيق ولم يعد إلى الزنزانة إلّا وهو يتأوّه ويئن وظهره وكتفاه قد تمزّقتا من جلد ضابط التحقيق..

ضابط التحقيق هو شاهد زور وجلّاد وسجّان وقاضٍ وحاكم متسلط بأمر وزارة الداخلية... والمتهم عليه أن يعترف ويمهر اعترافه بخط يده وتوقيعه.. فاعتراف المتهم أمام ضابط التحقيق يدخل ضمن نجاح عمل ضابط التحقيق.. وسلّم ارتقائه من رتبة إلى رتبة.. وكنت أتصوّر النجوم التي تلمع على كتفيه تومض بدماء الوطنيين واليساريين

والشيوعيين الذين يجابهون جلد وتعذيب وتنكيل ضباط التحقيق!!

يخلد السجين إلى النوم وعلى إيقاع نوبات اضطراباته النفسية والروحية تصوغ المخيلة أضغاث أحلامه... وفي الصباح يستيقظ محاولاً فكّ أسرار وألغاز أضغاث أحلامه ولا يقبض إلّا على الريح!!

ربما كان ديكارت على صواب فيما رأىٰ بأن المخيلة سيدة الخطأ والضلال: أقول «الناجي» مُعتذراً ومواسياً بأن ما يعرفه المفسرون للأحلام ما هو إلا عين هذا الخطأ والضلال الذي يذكره لنا الفيلسوف ديكارت.. عن المخيلة التي هي سيدة الخطأ والضلال!!

المحطة التاسعة

المحقق (بكسر القاف) يتلوّن... والمحقق معه (بفتح القاف) يتلوّن... فتتشابه الألوان.. وتضيع الحقيقة في لون واحد: لون البحث عن الحقيقة... وعلى إيقاع فرشاة لوحة تشكيليّة سوريالية موشّاة بدم تمزّق الروح والجسد!!

ينزف السوط دماً.. فيتلوّن الجسد دماً قانياً كلون دم السوط.. وتتشابه الألوان في ضوع نزف السوط ونزف الجسد في الدم... دم السوط أم دم الجسد؟!

هكذا تتلوّن الألوان في نزف لوحة سوريالية اشتبك على إيقاع ضربات فرشاتها سجين وسجّان.. وجهاً لوجه في غرفة التحقيق.. يسأل ضابط التحقيق:

ـ كم لك من الأسماء؟!

ـ اسم واحد!!

ـ أعني الأسماء الحزبية...

يلوذ السجين بالصمت.. يتذكّر صامتاً ويقول بينه وبين نفسه.. ما أجمل إيقاع الأسماء الحزبية على النفس!!

ـ يكر ضابط التحقيق أسماء السجين الحزبية عبد اللّه.. عباس.. مجيد. خليفة.. في كل خليّة كنت تُديرها كان لك اسم مغاير عنها في الخليّة الأخرى.. لا تكذب سوف أسحق هذا الرأس المملوء بشيب أوهام الفكر والتنظيم.

أدري أن السوط الذي ينزف دماً له قدرة سحرية على انتزاع الحق والباطل على السواء.. فعندما تشهق الروح بالدم أمام سوط الجلاد يختلط دم الحق بدم الباطل.. ويُصبح الباطل حقاً والحق باطلاً!!

ضابط التحقيق يريد أن ينتزع الاعتراف أكان حقاً أم باطلاً.. نزع الاعتراف يُريح ضمير ضابط التحقيق.. ألِضابط التحقيق ضمير؟! ألِسوط ضابط التحقيق ضمير؟! لا ضمير لهذا ولا ضمير لذاك!!

يفتح ضابط التحقيق جهاز التسجيل وتسمع صراخ

التعذيب يشق صدر جهاز التسجيل.. لا أخطئ صوته... يتعذّب ويصرخ ويستجير بضابط التحقيق «أبو منصور» الذي أصبح سوطاً والسوط أصبح ضابط تحقيق.. فأين المُجير؟! لا السّوط ولا ضابط التحقيق: مُجير.. وتذكرت القائل:

المستجير بعمرو عند كُربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

وكان السوط يتمزق في الصراخ.. وكان الصراخ يتمزق في الصوت... حتى خفت الصوت في الصراخ وخفت الصراخ في الصوت.. وأضحىٰ (..) جثّة هامدة لا صراخ ولا صوت!! هكذا تصورتُ (..) مُنتحب النفس على شريط مسجل ضابط التحقيق.

صمت ضابط التحقيق يقرأني.. وصمتُّ أقرأه... من يقرأ من في صمته؟! خفق قلبي مخنوقاً خائفاً دامياً.. يبحث عن مخرج.. فأين المخرج؟! هناك مخرج الممكن (السهل) وهناك مخرج (الممتنع) المستحيل.. وحزمت الأمر أن أكون سهلاً ممتنعاً في حضور أسئلة ضابط التحقيق!!

فألوذ سهلاً ممتنعاً خارج دوائر اتهامات وأباطيل ضابط التحقيق.. هو يشدني إلى أشراكها... وأنا أفك خيوطها شرنقة.. شرنقة.. يصرخ في وجهي مهدداً. فأتذكر شريط التسجيل وصراخ التعذيب فألوذ بالبكاء... يسأل مُتهكماً أتبكي.. لا أرد.. فأقول بيني وبين نفسي لا عيب في

البكاء.. العيب في تسليم ما لا يَدْرِيْه ضابط التحقيق!! فأضم ما لا يدريه ضابط التحقيق في قلبي.. وأقسم أن لا أخرج شيئاً منه.. وإنه لقسمٌ في النفس لو تعلمون عظيم!!

ما أقبح أعذار ضبّاط التحقيق يمارسون أعمال القمع والجلد والتعذيب ويدمون بسياطهم الجلود ويهرسون بأقدامهم العظام ويتلفظون بأقذع الشتائم ويهددون بأشد العقوبات.. وفي اليوم التالي يطلبون العذر والمغفرة لأنهم مأمورون: «المعذرة فقد آلمتك جلداً مُبرحاً ولكنني مأمور.. ما العمل مهنتي تقتضي ذلك».

أهناك أعذار أشد قبحاً من أفعال القتلة والجلادين والجواسيس؟!

وبعد أن أمطرني شتماً ولعناً وتهديداً بجلب أعز من عندي من الأهل وتحطيم كرامتي: وَجَفَ قلبي.. وجَفّ ريق فمي.. وتراجفت أعصابي وتناملت أطرافي.. وتمنيت الموت على أن أرىٰ مشهد ما كان يُهددني به ضابط التحقيق!!

دفع به الجندي مقيداً أمامي.. فأمره ضابط التحقيق بفكّ قيده.. تراقصت نظراته بذلٍّ وخجل وانهيار.. أمره ضابط التحقيق بالجلوس فجلس أمامي مكسور الروح والنظرات.. أشفق قلبي عليه.. فهو لا يستطيع أن يرفع حاجبيه من الخجل.. فقد فَقَدَ الكرامة والمروءة والحزب والوطن..

وكدت أن أبصق في وجهه وهو يهر اعترافاته هراً أمام ضابط التحقيق!!

المحطة العاشرة

. . . وأمام المساءلة. . تتوقد أحاسيس ذاكرة السجين الذهنية. . وهو يواجه أسئلة ضابط التحقيق الذي يدفع باتهاماته وأسانيده وأباطيله ليؤكد التهمة ضد السجين. . فهو معني أمام مرؤوسيه في وزارة الداخلية باتخاذ الأساليب كافة في التهديد والتطويع لانتزاع اعتراف السجين. . فكفاءة التحقيق في اعتراف المتهم لا في نكرانه!!

ويضعك ضابط التحقيق أمام خيارين: الاعتراف بطيب خاطر. . أم من دون طيب خاطر. . ويفتح جهاز التسجيل ليسمعك صراخ أحد زملائك الذي لا تخطئ صوته وصوت جريد النخيل يأخذ إيقاع جلده دون توانٍ حتى يتبدىٰ الصراخ أنيناً وأنت تُصيخ إلى حمم أنفاس الجالد والمجلود. . ويتوقف الصراخ ويهمد الجسد وتتناثر أشلاء جريد النخيل مُبقّعة بدم الجسد!!

يدفع أمامك المحقق دفتراً وقلماً ويقول سجّل اعترافك بخط يدك. . ويصيح يا عسكري: أعده إلى زنزانته!! أفرح

بالقلم والقرطاس.. وجوارحي مشدودة إلى رفيقي (...) الذي أكل جريد النخل لحم ظهره!!

أقبع في الزنزانة.. أُمسك القرطاس والقلم.. أحس بدفء الحياة عندما أهيئ القرطاس وأمسك القلم.. فأنتاب الكتابة في أفقها الرحب وتنتابني في ضيق زنزانتي، فقد غادرتني وغادرتها زمناً وأنا قابع في زنزانتي.. أتذكر ضابط مباحث التحقيق: خذ هذا الدفتر والقلم وسجل اعترافك.. ويأتيني من بعيد صوت (...) وهو يتمزق تحت جلد جريد النخيل!!

إيقاع السمع في ممارسة عملية الجلد والتعذيب.. أشد وطأة على نفس السجين.. فمواجهة التعذيب أخف وطأة من التهيؤ والتهديد بالتعذيب..

أفتح الدفتر أثنيه على ركبتي وأسند ضهري إلى الجدار.. وأكتب قصيدة وأنا أستعيد ناظم حكمت: من يضيء شموع الطريق إذا أنا وأنت وهو لم يتمزق جلده بجلد جريد النخيل.. وإذا لم نصنع من جلودنا أشرعة نشق بها رياح الوطن.. ومن شحومنا زيتاً نضيء به عتم الطريق.. ومن عقولنا فجراً نقذف به وجه الطغاة.. كان شعراً عنيفاً متطرفاً منعكساً جراء بطش ضابط مباحث التحقيق!!

أزمّ أعصاب حواسي فتتوقد نفسي بكبرياء التطرف

والتحدي: بأن أُبقي القصيدة وألقي بها في الدفتر بين يدي ضابط التحقيق.. إلّا أنني جبنت ومزقتها أثراً بعد عين!!

شتمني وبصق في وجهي فقد أعدت إليه الدفتر على بياض أوراقه.. أرهقني بأسئلته الشفهية.. رفع العصا وهوىٰ بها فوق رأسي على الجدار دون أن تمسني هكذا أرادها لإخافتي.. دفع بالدفتر والقلم.. وطلب إلي أن أكتب أسئلته وأن أجيب عنها.. وكان يعمد إلى تكرار الأسئلة ذاتها مرّة ومرتين وثلاث مرّات.. بغية مقارنة التناقض بينها!!

استشهد رفيقنا خالد النزهة في ريعان شبابه تحت بطش التعذيب وخفّت وطأة التنكيل بجريد النخيل!! ضابطا مباحث التحقيق (ناصر) و(منصور) اسمان رمزيان لهما وهما يُخفيان اسميهما ويخفيان بذلك جرائمهما اللاإنسانية في انتزاع الاعتراف بالقمع والتنكيل.. فالسجين عندما ينال حريته يبقى وشم القمع والتعذيب ينازع ذاكرته بالثأر لكرامته الإنسانية والوجدانية التي استباحها بوحشية ضابط مباحث التحقيق!

كوّة الزنزانة مفتوحة.. أطل منها جندي.. أطال تأمل وجهي.. ابتسم وفتح باب الزنزانة.. اقترب مني وقال: أنت أعتيبي.. قلت: «اللّه.. اللّه» بس قلي وشلون عرفت.. قال: من عيونك اللي تقدح شررها.. فزّ وترك بوابة الزنزانة على مصراعيها.. وعاد وهو يحمل كأسين من التمر والقهوة.. إنها القبليّة بجماليتها وقبحها التي ترابط في

وجدانية الوطن.. وكنت أفرح بوردية الجندي سعد الذي كان يطل من كوّة زنزانتي: يبتسم ويسأل عن حاجتي.. ويضحك أو يبتسم أيضاً ويقول:

[يا طير صادتك الحبايل والأقدار
يا طير لو كنت حذر ما صادوك]

أقف في زنزانتي... أحرّك أعضاء جسدي أتفاعل في نفسي ومع نفسي.. فأستعيد ذكريات دقائق شريط حياتي... أطل من كوّة زنزانتي.. هو أيضاً يطل من كوّة زنزانته.. يُحرِّك يده متسائلاً ولحيته تطل حتى سرّة كرشه.. يهز المصحف بيده.. ويقول روّح عن نفسك بقراءة القرآن.. أقول له تعبت.. يهز رأسه قائلاً: لا حول ولا قوّة إلّا باللّه!!

مُشعرٌ رث طويل جهم عيناه غائرتان وكتفاه عريضتان.. قال لي عنه الجندي سعد إنه من جماعة «جهيمان»، تذكّرت القبيلة وأدركت لماذا يحظىٰ بعناية وخلوة خاصة!! فالقبيلة باب واسع لخروقات الظلاميين والإرهابيين المتطرفين.. عميقاً.. عميقاً.. في أجهزة الدولة!!

المحطة الحادية عشرة

... وينقسم التنكيل إلى قسمين.. قسم مادي وقسم روحي.. المادي يرتبط بتنكيل الجسد.. والروحي يرتبط

بتنكيل حواس الجسد الخمس: وقد يعاني الجسد عذابه وأوجاعه في مراحله الأولى.. أما بعد ذلك فيتكيف وتخف أوجاعه وآلامه!!

تُشدُّ قدم السجين بالقيد وترفع إلى الأعلى.. فينهال جريد النخل عليها جلداً حتى تتفجر دماً.. والصراخ يرتفع عالياً ثم يهدأ... وتحسبهم كفّوا عن الجلد.. إلّا أنهم لم يكفوا (...) وإنما كفّ الجسد عن الألم..

يعود السجين إلى زنزانته وقدماه تلتهبان من الألم.. يمشي مُضطراً يضغط عليهما.. يُمسك قضبان الزنزانة بيديه، يرفع قدماً ويخفض أخرى على الأرض، يعضُّ شفتيه مُتصبّراً من قسوة الألم!! تمارين ثقافية معروفة لدى السجناء.. وتضميدات علاجية تساعد على اندمال جروح القدم بسرعة وتجربة معروفة لدى السجناء وسجناء الرأي في التعذيب، أما الذين يلزمون الأرض ويمدون أقدامهم دون أن يُحرِّكوها ويمشوا عليها فإنها تنتفخ كالكرة في اليوم التالي وتشتد آلامها ويطول علاجها!!

في السبعينيات تمّ القبض عليّ من قبل أجهزة المخابرات السورية.. دفعت على وجهي في أحد السجون الدمشقية.. وقد احتضنني ذلك السجن القذر بمعية عشرين سجيناً سورياً تقريباً.. وكنت السجين السياسي السعودي الوحيد الذي عاش أيامه العشرة بين ثلّة من النصابين والنشالين والقوادين وبائعي

المخدرات.. وكان السجن رثاً رطباً قذراً مهملاً نتكدس بين جدرانه كالسردين.. وكان البق والقمل ينهش أجسادنا ليلاً ونهاراً.. ونقرة المرحاض المفتوحة علينا تنشر روائح البول والبراز بيننا.. لم أنم ولم أذق طعاماً أوّل ليلة وثاني ليلة وكنت أتأمل أسراب البق يتلاصف مُتماوجاً على أجساد السجناء والهرش لا يكف والشخير يتعالى.. أما في ليلتي الثالثة فقد فتحت فمي للأكل وأغلقت عيني للنوم.. وتشكلت أحاسيس وعيي وحواسي تتفقّد عوالم اللصوص والحشاشين والنشالين وتُجار المخدرات!!

أقف إلى الجدار أحفر عليه منجلاً وشاكوشاً فيتناثر البق من الجدار.. يصرخ «أبو سمرة» مفزوعاً شيوعي من أتىٰ به بيننا... وحده «أبو سمرة» النشال المحترف الذي عاصر سجون سورية كلها.. وحده يعرف شيئاً في السياسة أما البقية الباقية فيفتحون أفواههم ببلاهة!!

مُميّزة وطاغية كارزما هذا النشال الفذ الذي له تأثير قوي على جميع السجناء الذين ينقادون لأوامره كالنعاج.. وهو محدثٌ بذيء ضخم الرأس واسع الجبهة قصير القامة متجهم الوجه نافر الأنف واخز النظرات أسنانه صفراء متباعدة يهُز قبضته في وجه السجناء فيلزمون الهدوء ويكفون عن الشجار!!

إنه موهبة نشل فقهيّة نادرة.. أقترب منه يلف لي سيجارة

بأصابعه القذرة ويحدثني عن فلسفة النشالين (. . .) قائلاً إن أكثر محاولات النشل الفاشلة تكون في الصباح. . أما في المساء فالناس يعودون من أعمالهم إلى منازلهم متعبين مُبددي الأفكار هواجسهم مزحومة فيقعون ضحية سهلة أمام حذق النشالين!! ويقول: وفي لحظات ركوب الباص يأخذ الزحام طريقه. . وتصبح جميع حواس الراكب مُهيأة للصعود والقدمان مثبتتان للدخول. . عندئذٍ تأخذ لحظة النشل طريق نجاحها الأكيد!!

لا ريب أن ذكاءً فطرياً دفيناً تشف عنه نظرات «أبو سمرة» وإيماءات كارزما ذراعيه وهو يتحدث فيما يجوز وما لا يجوز ما يشهد له أنه راهبٌ ترهبن في محراب النشل طوال خمس وعشرين سنة من سجن إلى سجن في طول البلاد الشاميّة وعرضها!!

وأحسب أن أوجاع الجسد تذهب دون رجعة. . وتبقى ذاكرة رواسب أحاسيسها تؤرق الإنسان مدى الحياة!!

وأعجب أن مواقيت وجبات التعذيب هي في تمام الساعة 12 ليلاً. . وأحسب أن الحكمة هي في إخفاء الجريمة ليلاً وإخفاء اسم الجلاد الذي يحمل اسماً مُستعاراً!!

في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً. . . كلّ يترقب دوره في التعذيب والتنكيل. . والصراخ يشق عنان السماء. . وكأنه يشق قلوبنا ويمزق أحشاءنا. . وكل ينظر إلى الآخر بفزع وهو

ينتظر دوره.. يعودون بعد الجلد مثنىٰ وثلاث إلى السجن زحفاً.. ينتفض «أبو سمرة» يصرخ هاتوا إناء الثلج.. يضع أقدامهم في الثلج.. ينهض بهم واحداً بعد الآخر وهو يقول بصوت متهدج: (شدّة وتزول) ويأمر قائلاً حرّك قدميك واضغط بهما على الأرض وواصل المشي!! يغلق السجان باب الزنزانة فيسدل الليل ستاره.. وتنهض قوارض البق عطشىٰ تمتص بلذّة دماء السجناء!! اللّعنة.. اللّعنة.. أهذه رسالتكم الخالدة؟!

المحطة الثانية عشرة

في غابر ماضٍ من عمرٍ له نكهة مشرقة كنت مع فصيل من اليساريين والشيوعيين نحفر في الظلام قطرة ماء وبصيص نور... وكنا نخفي بصيص نور عقولنا ونفوسنا وقلوبنا.. وإذا حانت الفرصة ننفذ شيئاً في ظلام هذا وشيئاً من نور ذاك.. وكانت عيون الظلام ما انفكت تتعقبنا ونحن نختفي هنا ونخرج هناك.. ونصمت هنا ونتحدث هناك.. وكان الشاعر معين بسيسو يسكننا: «فأنت إن سكت مت.. وأنت إن نطقت مت.. قلها ومت» وكنا نموت في الحرية.. وكنا نبحث عن لقمة حرية.. لنعطي الآخر لقمة حرية وخبزاً وسلاماً!!

وعندما ألقي القبض عليّ بالجرم المشهود.. كنت وجهاً

لوجه أمام رجل الأمن بالجرم المشهود.. وما كان لي أن أخرج من دائرة الجرم المشهود... ويومئذ كان (...) ينفث في وجهي سموم اعترافاته... وكنت أحولق في داخلي ولا أنبس ببنت شفة!!

قال رجل الأمن إذن أنت شيوعي قلت بالجرم المشهود... قال إذن أنت كافر.. قلت كافر بمن؟! قال كافر باللّه.. قلت حاشا للّه.. قال: فالشيوعية كفر وإلحاد.. قلت حاشا للّه.. ولمَّا اكفهر وجهه وضاق ذرعاً بجملة «حاشا للّه» قلت لا يجوز تكفير من يشهد أن لا إلٰه إلّا اللّه وأن محمداً رسول اللّه.. ومن يقيم الصلاة ومن يؤدي الزكاة ومن يصوم رمضان ومن يحج البيت الحرام إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ومن يؤمن باللّه وملائكته ورسله وكتبه وبالقدر خيره وشره.. قال: يا لك من كذاب أشر... قلت حاشا للّه.. ورفع رأسه وبصق في الهواء... هل بصق في الهواء؟! أم بصق في مكان آخر (..) فقد أعيته ترديدة حاشا للّه!!

وعندما أخذ بيدي الجندي عائداً بي إلى الزنزانة.. كانت تعصف بالنفس والفكر والروح جملة: «وبالقدر خيره وشره» ها أنا في زنزانة قذرة ملطخة جدرانها ببقايا من كان فيها قبلي.. وفي سقفها «كاميرا» جهاز تصوير إلكتروني.. يتدلىٰ وهو يصوِّر وينقل كل شيء ويراقب تأدية الصلاة على مدى

أوقات الصلاة الخمسة.. وكنت أبتسم في وجه الجندي الذي لا يفرق بين الشيعي والشيوعي.. وأقول له تراني أصلي وكان يقول: ولكنك لم تتوضأ فأقول: عليّ وضوء وكان يقول: هداك الله.. وكنت أرد وهداك أيضاً!!

فأمضي مع نفسي وفكري وروحي تعصف بي جملة «وبالقدر خيره وشره».. وكنت أقول خير القدر وشره في سيرورة مطلقة أم في سيرورة نسبية.. وكنت أقول هل هناك قدر نسبي وقدر مطلق؟!

فالقدر لا يكون إلّا في مطلقه.. وأُرجعُ الذاكرة إلى شيء من الفلسفة الماركسية.. وأتذكر وأنا في الزنزانة أن هناك شيئاً نسبياً في المطلق.. كما أن هناك شيئاً مطلقاً في النسبي.. بل إن المطلق هو مئات ملايين الجزيئات النسبية!! فأستقر على بينة من نفسي من إيمان القدر خيره وشره.. وترتخي عضلات العقل عندي ويهدأ تلاطم أمواجها الفكرية والروحية وتخلد في سعادة يقظتها.. وأستحضر الأهل والأطفال: سامر وبشار وثابت.. لم تكن دنيا وهديل موجودتين آنئذ.. وأتنسم روائح القرنفل في أنفاس «نعيمة» وأنا أتفقد نبض أحاسيسهم الإنسانية والروحية في أحاسيس روحي.. وأضغط على روحي في أرواحهم من بعيد وأنا مقرفص في زنزانتي.. وكنت أستحضر أرواحهم تلج من كوّة الزنزانة.. وكانت روحي تخرج أيضاً من كوّة الزنزانة ملوّحة

بصدرها تحتضنهم واحداً.. واحداً.. وكان يطول بي المكوث في ضوع أنفاس «نعيمة».

هم يضعون خير القدر وشره ـ في غيب المطلق وأنا أضعه في نسبية نظرتي إلى الحياة.. وكنت أقلّب خير القدر وشره ولا أستقيم إلّا في خيره.. أما شره فليذهب إلى الجحيم.. وكانت نفسي تقول: ولكنك يا صاحبي في عمق زنزانة شره!! وكنت أراجع نفسي هل أصابها «زيغ» فالنص تراه في مطلق قدر خيره وشره وأنا أخذت خيره ورفضت شره.. هل يمكن تجزئة الإيمان وأخذ ما يمكن أخذه.. وترك ما يمكن تركه؟!

إن حاكمية قدر الخير والشر الإيمانية حاكمية قدرية تتعلق بالمسألة العبادية وليس لها أية علاقة بحاكمية المسألة الاجتماعية المدنية.. على الرغم من أنها تخضع لمشيئة: «فمن شاء فليؤمن.. ومن شاء فليكفر» إلّا أن الطغاة والأباطرة والدجالين والظلاميين والجلادين والكهنة وجماعات التخلُّف والظلام والمقامرين بحرية وإرادة شعوبهم يُلبسون قدرهم بقدر اللّه.. ويتطيرون بخيره وشره في قدرهم.. ويدخلون قدر خير وشر الآخرة في قدر خير وشر الدنيا ويمسكون بقوانين حاكميتها البرهانية والإيمانية متمثلين بالإنابة عن حاكمية اللّه.. شأن ولاية الفقيه في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في شخص آية اللّه خامنئي:

«مـا شـئـت لا مـا شـاءت الأقـدار
فـاحـكـم فـأنـت الـواحـد الـقـهـار»

المحطة الثالثة عشرة

حدق ضابط الجوازات إلى وجهي مُقارناً صورتي في الجواز... بما أنا عليه من زي أفندي: بنطال رمادي وقميص يضاهي اصفراره دوار الشمس وشعر فاحم خالطته خيوط كالثلج وشارب أشعث برمت أطرافه: خلاف صورة جواز السفر المدرّعة (بشماغ) زاهٍ كزهر الرمان وعقال كالليل ينحني على الرأس مُلملماً أطراف (الشماغ) وثوب كالحليب تزم ياقته دائرة عنقي... هكذا تبدو الصورة في الجواز خلاف ما أنا عليه.. وكادت تكشيرة ضابط الجوازات تنفجر غضباً في وجهي.. أبتسم في وجهه ملاطفاً متسائلاً.. فيزداد عبوساً وتأففاً، أقول له هكذا زينا الوطني في بلادنا.. فأكتشف أن الزي ليس الذي أغضبه وإنما ما كتبته في (بيان) ورقة معلومات جواز السفر.. وما ذكرته بأن جهة سفري هي برلين عاصمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R). قلت بأدب ولكن هكذا تُدعىٰ. قال بنزق لا وجود لهذا الاسم على وجه الأرض... أخرجت «فيزة» سماح دخولي إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R) في ورقة بحجم الكف فامتقع غضباً وكاد الدم ينبجس من وجهه المستدير وهو يدفع

بها في وجهي مدمدماً بشتيمة سوقية.. قلت عفواً ماذا.. ولكن أغلق زجاج الكابينة وخرج وتركني أنتظر.. طال الانتظار دون أن يعود وجواز سفري معه.. غادرت الطائرة التي استقلتني من جنيف إلى بون عاصمة ألمانيا الاتحادية وأنا في طريقي إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R) حيث مقر دراستي، كان ذلك في الستينيات وكانت الأمة الألمانية نصفها يغط في الرأسمالية والنصف الآخر يغط في الاشتراكية.. لم يكن النظام الغربي يداني النظام الشرقي.. ولم يكن النظام الشرقي يداني النظام الغربي.. وكان النظامان على طرفي نقيض.. وقد تباغضت الأقوام وتوغلت الأحقاد وتنافرت الأمزجة وازدهرت الكراهية في النفوس والأرواح وامتهنت كرامة الإنسان!!

ها هو ضابط الجوازات يخطو في اتجاهي خطوات عسكرية ثابتة.. وفي يده جواز سفري، اقترب مني وسلمني إلى جندي بصحبته كلب أرقط يلهث.. وقال بعنجهية وكراهية وهو يشير بإصبعه في وجهي أنت رهن التوقيف إلى أن تتهيأ الطائرة لترحيلك.. أدخلت في زنزانة من خشب بابها مخلوع وكان الجندي يقف أمام مدخل الزنزانة وأنا ممدد على ظهري وقدماي تكادن تخرجان من باب الزنزانة المخلوع.. وكان الكلب الأرقط يفتح فكيه وهو يلهث (هه.. هه.. هه) ويهتز ولعابه يتقاطر على أطراف قدمي.. أسحب قدمي متقززاً

وأتقرفص بعيداً عن لعاب الكلب!! يحل المساء أنادي الجندي (هر منفرد.. هر منفرد) أبتسم في وجهه مُلاطفاً وأقول له البرد قارسٌ عندكم.. يرد بلامبالاة «ازقيت» أي ماشي الحال.. ولكن عندنا لا نعرف البرد. ونحن نركب الجمال ونأكل لحومها.. ترتخي أساريره وتتلامع الزرقة في عينيه وتفتر ابتسامته عجباً!! أقول له هل رأيت جملاً.. وهل ركبت جملاً.. إنها متعة.. متعة.. نُحسد عليها.. يرد «فركلش وندبا» أي صحيح.. يا لها من متعة؟!

طرّيت نفسه أو استطعت أن أطرّيها بدفء الحديث.. وإثارة المودة.. وها أنا وهو والكلب الأرقط في ركن من مطعم المطار نرفع كأسينا «بروست.. بروست» ونرمي بشيء من رقائق اللحوم الباردة للكلب «هزي» حتى الكلب راح يلاطفني وهو يهز ذيله بأدب ووقار الكلاب!!

عاد بي الجندي إلى الزنزانة بعد أن كرع ما استطاع أن يكرع وهو يقول «دينست ازت دينست.. أوند شنبس ازت شنبس» أي الخمر خمر والواجب واجب.. دخلت الزنزانة الخشبية وألقيت بنفسي مقرفصاً داخلها مثقلاً من الجعة وسلمت جسدي المتعب إلى نوم عميق وأنا أتقلب على أخشاب الزنزانة.. استيقظت في الصباح.. وذهب بي الجندي إلى الحمام والكلب يومئ وقاراً بذيله.. غسلت وجهي ومغّطت جسدي وحرّكت قدمي ضارباً بها الأرض..

ابتسمت في وجه الجندي وطلبت أن نذهب إلى المطعم ونتناول القهوة فرأسي يكاد ينفجر من الألم.. قال الجندي موعد الطائرة التي ستقلك إلى فرانكفورت الواحدة ظهراً ومن هناك تأخذ طريقك إلى القسم الروسي من برلين.. وكان ذلك خبراً ساراً جعلني أرشف فنجان قهوتي منتعشاً!!

وكانت النفوس المشحونة بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية تتفجّر في أجهزة الإعلام حقداً وكراهية وافتراء وكذباً.. حتى تكاد هذه الأجهزة الإعلامية أن تتشابك وتمزق بعضها بعضاً.. فجدار برلين لم تتجاوز إقامته بعد أسابيعه الأولى.. حتى أنني كنت أحد الضحايا الذين واجهوا تعسفاً وإهانة وسجناً جراء هذا التوتر البوليسي الأحمق الذي استبدّ بأعصاب أجهزة ألمانيا الاتحادية دون ذنب اقترفته اللَّهُم إلّا أنني ذاهب إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R). لقد كان الحقد الأعمى متغلغلاً في عمق النظامين الرأسمالي والاشتراكي.. وكان جدار برلين لترسيخ رؤية مسار على طريق بناء مجتمع إنساني تسوده العدالة الاجتماعية الاشتراكية ولصد رياح التخريب المادي الوافد من ألمانيا الغربية إلى عمق ألمانيا الشرقية!! فالتاريخ ينقُضُ التاريخ.. والتاريخ يهزم التاريخ.. والتاريخ يهدم التاريخ.. وكان ارتفاع جدار برلين يومئذ واقعاً ملموساً لضرورة تاريخية.. وكانت المزارع التعاونية الاشتراكية عرضة للحرق والتخريب وتسميم

الحيوانات والدواجن من قِبل عصابات المخابرات الألمانية الغربية وتشكيل فِرق التجسس وإثارة القلاقل في عمق جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R). إنها وقائع تخريبية واستفزازية نقف عليها وكنا نعيش واقعها خلاف ما تنشره وكالة الدعاية الألمانية الغربية من أكاذيب وافتراءات.. وإذا كان بناء جدار برلين على خطأ أو صواب فإن عوامل بنائه تعود بالدرجة الأولى إلى سياسة التخريب والتجسس يومذاك ضد جمهورية ألمانيا الديمقراطية.. ولم تكف أجهزة الإعلام الغربية عن تضخيم الكثير من الأمور السلبية التي أدّت إلى تقويض جدار برلين وتوحيد جزءي ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية على تقاليد الأسس الرأسمالية بعد الانهيار الذي أدّى إلى سقوط الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية التي كانت جمهورية ألمانيا الديمقراطية واجهتها المميزة.. وليس من باب المصادفة أن تتنادىٰ أجهزة الإعلام الغربية وكتبتها المأجورون والمخدوعون إلى تفعيل مرور عشرين عاماً على سقوط جدار برلين وتوحيد ألمانيا بحملة شعواء من الافتراء والكذب والتزوير دون خجل والأزمة العالمية تأخذ بخناق الأنظمة الرأسمالية وتكرس إفلاس وانهيار مؤسساتها المالية والبنكية والعقارية والصناعية على مستوى العالم.. وهو ما يؤكد الظلم في تشويه الحقائق من لدن أجهزة الإعلام الغربية وكتبتها ومثقفيها... وإظهار جمهورية ألمانيا الديمقراطية

وكأنها تعيش الفقر والعوز والقمع والاضطهاد دون التعرض إلى الحقائق الإيجابية والإنسانية الملموسة في إنشاء وبناء شبكات متطورة من نظم الرعاية الصحية والتعليمية والترفيهية والثقافية وبناء دور للأطفال وحضانتهم ورعايتهم الصحية والحدب على تربيتهم بوسائل إنسانية تفوق التصور!!

لقد تمّ توحيد الألمانيتين بأساليب تعسفية وقمعية وإقصائية وقد انتهكت حقوق أساتذة أجلّاء وفلاسفة نبلاء في جامعات ألمانيا الديمقراطية وكذلك السفراء والعاملين في السلك الدبلوماسي والإعلامي والمجالات الأدبية والثقافية والمسرحية والسينمائية..

وأمام هذا الزخم الإعلامي والمهرجاني لذكرى مرور عشرين عاماً على توحيد ألمانيا وسقوط جدار برلين والأزمة الاقتصادية العالمية تُعرِّض الملايين من الكادحين والعائلات إلى أوضاع العوز والتردي والفاقة والضياع يأخذ الحنين أبعاده الإنسانية إلى يومٍ كان العمل له كرامة والرغيف كانت له كرامة والمرأة كانت لها كرامة والطفل له عناية وكرامة والحرف والكلمة لهما كرامة ضمن مسؤولية الحرية وبناء الاشتراكية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.D.R) وتتوجس الذاكرة الألمانيّة أمام هذه الأزمة الرأسمالية العالمية التي تفتك بكرامة الإنسان وحقوقه: إلى مقولة ماركس «الإنسان أثمن رأسمال في الوجود» ولشد ما أرى امتهان الإنسان في

مهرجان مرور عشرين عاماً على توحيد ألمانيا وسقوط جدار برلين.. وأنا أستعيد في ذاكرتي لعاب الكلب الأرقط يسيل على قدمي وأنا ممدد في الزنزانة في مطار بون!!

المحطة الرابعة عشرة

سجن العبيد[1]

هذه القلعة الطينية الرّثة المتسامقة جدرانها بكبرياء وقسوة الامبراطورية العثمانية... أصبحت مقر إمارة الأحساء... في أحد أطرافها يتمدد متثائباً سجن الموت المكنّى بسجن العبيد... الذي تدافعت إلى ظلماته عبر التاريخ... أرتال العبيد والبدو والأحرار... المصفّدة أقدامهم وأعناقهم وأذرعتهم بأطواق الحديد!

لقد كان امتداداً بشعاً للعهود العثمانية المتعاقبة في المنطقة... مروراً بالعهد السعودي... حتى نهاية عام 1977. ولقد استمد من واقع تاريخه صفة اسم «سجن العبيد» تعبيراً عن مضمونه الموضوعي.. وواقع حيثيات عبوديته... وفي كتابات مثقفي تلك الفترة... كانوا يكنونه بسجن «الباستيل»... يقع سجن العبيد خلف أبراج القلعة التي تطل

---

(1) من كتاب (إني أشم رائحة مريم) للمؤلف.

مناورها على حوش السجن لمراقبة الاحتمالات الطارئة... وخلف جدار الحوش تقع بئر عميقة مطوية بالأحجار... تهالكت عليها سانية بدائية متآكلة... يتناوب السجناء على زعب الماء بالدلو وسكبه في حوض متصل بحوض آخر داخل حوش السجن يشرب منه السجناء وينتفعون بمائه لحاجاتهم... وأمام مدخل الحوش المؤدي إلى السجن تنتصب بوابة خشبية كبيرة منفوخة الأوداج متآكلة الأطراف طاعنة في السن رثة التفاصيل... تتناثر نتوءات حديدية مدوّرة على درفتيها... ويشُكها رتاج خشبي سميك تُثبت أطرافه بحلقات من حديد.

دفع (إبراهيم أبو سعد السفاعي) درفة بوابة سجن العبيد... فتناثرت أتربة من أطراف البوابة عليه... راح يلعن وينفض ثيابه من الغبار والتراب... لقد أمضى العمر كله سجاناً يدفع بأرتال العبيد والبدو والأحرار منذ أن دانت الأحساء لحكم سلطان نجد والأحساء مروراً بتوحيد المملكة.

ممصوص البنية... طويل القامة... مبروم الكتفين ترابي اللون... أحدب الظهر... متهدل الذراعين... أعرج الساق... يهتز مُعوجاً في مشيته... وجهه مستطيل وجبهته مسفوحة... أجفانه متورمة... وعيناه طافيتان... أنفه مبروم... ولحيته ذابلة... وصوته قاطع... وقف على

الباب يهتز معوجاً في نشوة بليدة وهو يدفع بالعمال والمثقفين في سجن العبيد:

غرفة واسعة مظلمة ليس لها نوافذ مسقوفة بجذوع النخيل يفترشها تراب ناعم ويتخللها بصيص نور من شقوق الباب... تتمدد فيها حطبات ثلاث غلاظ... تحتوي كل حطبة على ستة عشر ثقباً... يأخذ كل ثقب مقاس سعة عظم الساق... تُفتح الحطبة المثبت أحد أطرافها بمُفصّلات من حديد... ويُدخل كل سجين قدماً واحدة في الثقب... والقدم الأخرى مصفّدة بسلسلة من حديد... ثم يقوم السجان بإغلاق رتاج الحطبة بالقفل على أقدام المساجين!

كانت «اللوريات» تنقل المساجين مكبلين بالقيود من المنطقة الشرقية إلى سجن العبيد في الأحساء... حيث يستقبلهم (السفاعي) ويُرصّع أقدامهم في خشبة السجن... وقد تجاوزت أعدادهم الخمسين سجيناً من خيرة العمال والمثقفين: عبد اللّه هاشم... يوسف الصوفي... إبراهيم عبد اللطيف... خليل الجهيران... يوسف الشيخ... أحمد الشيخ... حمد السعيد... عبد اللّه سلطان... محمد هاشم... عبد الرسول الجشي... سيد علي العوامي... عبد الرحمن الركيان... محمد الربيع... عبد العزيز أبو السعود... علي القرعاوي... علي غنّام... عبد العزيز سميّر الشمري... عبد اللّه باجنيد... درع عبد اللّه...

عبد الرؤوف الخنيزي... محمد الجعفري... ميرزا صالح الخنيزي... عبد الرزاق اليوشع... حسن البريكي... عبد الرزاق البريكي... منصور إخوان... أحمد مطر... حمد الدهامي... محمد عبد الجليل الزهراني... مليحان العجمي... عبد العزيز التويجري... حمد الميبر... الشيخ علي الجشي... محمد عبد الجليل الزهيري... جعفر النصر... منصور محمد الشيخ القديحي... عبد الله التميمي... محمد التميمي... صالح الراشد... أحمد العرفج... عبد الغني الشماسي... عبد الرسول أبو السعود... عبد الوهاب المرزوق... عبد الله الجعفري... جمعان سعيد... صالح محمد الجري... حسن باحسين... أحمد الزامل... عبد الله الشميري... عبدالعزيز العمر.

وكان يتمدد في كل حطبة ستة عشر شخصاً مشكوكين بعضهم بجانب بعض... قدم واحدة... تغلها الحطبة والقدم الأخرى يغلها قيد الحديد.

الطعام يأتيهم من نفايات «فداوية» وعبيد القلعة... أرز مسلوق بالماء والملح... لا طبيب ولا دواء في السجن... الزيارة ممنوعة والأهل لا يعرفون شيئاً عن أبنائهم وآبائهم وأزواجهم وإخوانهم وجميع أقاربهم... أكانوا على قيد الحياة... أم في عداد الموتى... الكثيرون من الأقارب

يحومون بحذر من بعيد حول السجن... يحققون في خواطرهم ذكرى أبنائهم وأزواجهم... ويتنسّمون في توجّدهم... وجد فلذات أكبادهم... لقد توثّقت ذاكرتهم في ذاكرة العدم... واستبد يقين الموت لديهم عبر التاريخ: بأن قلّة قليلة تلك التي دخلت ظلام قبر سجن العبيد... وخرجت «صاغ» إلى نور الحياة... وكان بعضهم يطوف حول القلعة من بعيد... كطواف أهل القبور... يتوجسون ذكرى رحمة موتاهم!

هم يُخرجون أقدامهم من ثقوب الحطبة... ويذهبون لزعب الماء من البئر... وقضاء حاجاتهم... ويتعاتبون... ويتآسفون... ويتفاكرون... ويتفاءلون... ويتياءسون... ويتراحمون... ويتآلفون... ويتشاكلون... ويتكارهون... ويتقارفون... ويتمازجون... ويتنادرون... ويتذاكرون... ويستذكرون... ويأكلون طين الأرز... مرغمين على دفع غائلة الجوع... والتشبث ببصيص الحياة... وهو مشكوك في الحطبة يمتصه المرض وهمّ السجن! يذهبون إليه... يُطعمونه ويُشربونه... يزيلون أوساخه... يبتسمون له... يلاطفونه... يبتسم لهم بلطف الوداع... وهو مسجور في القيد والحطبة... يذهب أحدهم يرج الباب بقبضتين واهنتين... ينادي بأعلى صوته: «أبو سعد» «أبو سعد» «السفاعي» «السفاعي» تكفا... زميلنا (محمد الربيع) أنهكه

المرض وقد أشرف على الموت... اطلب الطبيب... تكفا «يا بو سعد» أو انقلوه إلى المستشفى... يفتح (السفاعي) الباب قائلاً: «إنت انهبلت... تبي طبيب... هو فيه عندنا طبيب... رح انثبر... الموت عند الله... وأحنا ما جبناكم في ذا نلعب».

انتزعه من الحطبة بلطف «حمد السعيد» وحمله بين يديه... وكان خفيفاً كالريشة... لقد امتصه المرض... فتح عينيه وابتسم بلطف... وقال: «سلّم على ناصر». ثم أغمضهما... وأسلم روحه الطاهرة مغادراً الحياة... تركوا جثته في حوش السجن ثلاثة أيام حتى تعفنت... ثم حملوه قابضين على أنوفهم بأياديهم!

لحظات الموت... لحظات غائمة بأسرار «الميتافيزيقيا»... نبض الموت في الذاكرة... كنبض الحياة في الموت...!

كان الموت ينشب أظفاره الصفراء في وعي الحياة القاني... وكانت الحياة المكبّلة تسوّف الموت في ذاكرة وعي الطلقاء... السجين قضيّة... والطليق قضية... قضيتان في قضية واحدة... تُشكل قضية الإنسانية... قضية حرية الإنسان... في اختيار متنوع الحياة ومتناقضها...!

كان «ناصر السعيد» رفيقاً جهادياً للشهيد «محمد الربيع»، وكانت ذاكرة وعي الموت عن «الربيع» تتنسّمُ ذاكرة وعي

الحياة في «ناصر» وكان وداع وعي الموت... في استمرار وعي الحياة... جُملة موتٍ لحياة واعدة... انبجست من بين شفتي «الربيع» وهو يودِّع الحياة: «سلّم على ناصر...».

إرادة الإنسان بطبيعتها... إرادة متمرّدة... وإرادة السجن والسجّان... إرادة متجهّمة متوحّشة... تطوّق بأذرعها... إرادة الآخرين...!

السجن يتوجد في داخله... حركة الخارج... وحركة الخارج تتوجد في داخلها حركة السجن.

ذاكرة السجن تضجُّ بذاكرة الحياة... وذاكرة الحياة تضجُّ بذاكرة السجن: نقيضان متجاذبان... الحياة تتخلّق بالموت... أم الموت يتخلّق بالحياة؟! الموت مَعبَر أزلي للحياة... والحياة معبر أزلي للموت!

الموت سكون... والحياة توثُّب: وضعوهم في سكون الموت... وخايل الموت أكثرهم... وكان وثب الحياة في نفوسهم أشد وثباً... من وثب الموت... وكانت إرادة الإنسان وتضامن الإنسان في مجد إنسان الداخل والخارج... أقوى من إرادة الموت!

جفّف الموت نبض «محمد الربيع» وراح وهو يلفظ أعطر أنفاسه للحياة... يُزجي ابتهال روحه إلى رفيق دربه «ناصر السعيد» لكي تسود الحياة قائلاً: «سلّم على ناصر»!

استبدت بهم ذاكرة الموت... وهم يمرون بجثّة (الربيع)

وهي مطروحة في الحوش... تتورم تحت الشمس الحارقة من العفن... حفّ بهم المصير ذاته... وراحوا يتنفسون موتهم البطيء... وهم يعيشون فضاء حياة العدم والجفاف... خارج حركة الزمن الطبيعيّة... رهن انفصام حالة زمنية في مكابدة سكون زمن مداهمة الموت خارج متغير الحياة الاجتماعية!

إنهم في غُربة الأسرة والمجتمع والكون برمته... يعيشون خارج متغيّر فصول الزمن... خارج حركة الأسرة والوطن والعالم... وكان سكون الموت يجزّئ نبض حركتهم... ويفصلها عن حركة التاريخ والجغرافيا!

وكانت حَمْلةُ الأهل والأصدقاء... وذوي الإرادة الطيّبة في العالم... في الاحتجاج والمطالبة بإطلاق سراحهم... هاجساً متأججاً لم يهدأ منذ أن كُبُّوا على وجوههم في قاع سجن العبيد... وقد أمضوا بين الموت والحياة سنة وأربعة شهور وأحد عشر يوماً... من 16/ 6/ 1956 إلى 27/ 10/ 1957 خرجوا من زمن الموت إلى زمن الحياة... يجرون أقدامهم جراً... يتنسمون غُربة الحياة... بأجساد دكّها المرض... وامتص عافيتها الوهن... وكانت إرادة الحياة... أقوى من إرادة الموت!

لقد شكّل إطلاق سراحهم... حالة نفسية اخْتَلَمتْها

أحاسيس طاغية بفرحٍ يكاد يَفر من بين الضلوع فراً... شوقاً إلى الحياة!

تساقط الخبر كالمطر على المنطقة الشرقية... بلل الفرح القلوب... وسالت الدموع دنفة من «مزاريب» العيون... وارتحل الأزواج والآباء والأقارب إلى سجن الأحساء... لتوقيع فرمان العرفان بالجميل... والتعهد بعدم الخوض في السياسة!

عُرفت طقوس العبودية منذ الأزل بالتبريرية... تبرير العبوديّة بالعبودية... فرمنة العبودية... بإصدار فرمان عبودي تبريري: السيّد يبرر اقتراف عبوديته على توقيع فرمان السمع والطاعة...! السمع والطاعة... خارج الحياة... السمع والطاعة فقط في المقابر! وقد انتقلت فرمانات هذه العبودية إلى الإقطاعية مروراً بالرأسمالية... وهو ما يُعتمل بمثله أو بما يُشابهه في الكثير من البلدان العربية: يُسجن المواطن ظلماً وبهتاناً... وتُنتهك أبسط حقوقه الإنسانية... ولا يخرج من السجن إلا بعد مِنَّة العرفان بالجميل... والتنكر لقِيم الحرية والإنسانية... التي طالب بها... وتوقيع فرمان إن عاد لمثلها يلاقي أشدّ العقاب...!

وكان اللّه رحيماً بعباده... فقد كانت السرائر الأوعية الأكثر إحكاماً... في عدم كشف أغطيتها!

القلوب لا يمكن شقها... ولا يمكن للطغاة أن يصلوا إلى سرائر النفوس والقلوب مهما سادوا واستبدوا...

ولا يمكن لفرماناتهم... أن تُزيل من نفوس وقلوب المظلومين... أدران ذلهم وعبوديتهم... التي تراكمت في نفوسهم ردحاً من الزمن!

الطاغية يكذب على نفسه ويصدّقها... عندما يطلب إلى الضحية التي شوّه إنسانيتها وأسال دمها بالقمع والإرهاب والتعذيب... أن تبصم على فرمان عبوديتها بمنّة فرمان العرفان بالجميل... وعدم العودة إلى ما لا يُرضي آلهة العبودية!

وكان «حسن الربيّع» شقيق «محمد الربيّع» برفقة من ذهب إلى سجن العبيد في الأحساء... وكانت عيناه تنظران إلى الأشباح البشرية التي تخرج من السجن بأسمالها الممزقة ووجوهها الشاحبة وأجسامها الممصوصة... وعيونها الغائرة... وهو يتفقّد بينهم أخاه «محمد الربيّع» دون أن يرى له أثراً بين هذه الأشباح البشرية!

عاد غاصاً... دون أن يرى أخاه... طرق الباب... ابتهلت زوجة الشهيد... بفرحة لقاء زوجها... صرخ طفله الوحيد: بابا... بابا...

دخل «حسن» دون أن يكون «محمد» معه... انكبّ البيت على وجهه بالصراخ والعويل... لبس الأهل والجيران

ثياب الحداد... وانتاب الحزن أهل الجبيل... وتحسّبت النساء على الظالمين: «حسبي اللّه ونعم الوكيل... حسبي اللّه ونعم الوكيل»، تحسّب يتحسّبه المسلم أمام كوارث الطغاة... وضعت «مريم» عباءتها على رأسها... بعد أن رددت بينها وبين نفسها: «حسبي اللّه ونعم الوكيل... حسبي اللّه ونعم الوكيل» واتجهت إلى دار المغدور به... ضمّت زوجة «محمد الربيع» إلى صدرها... وراحت تقبّل وجنتيها المبللتين بالدموع... ارتعشت مذبوحة من الألم... ثم انفرطت نواحاً ولطماً... وهي تردد: «حسبي اللّه ونعم الوكيل... حسبي اللّه ونعم الوكيل».

عندما ساقوه إلى سجن العبيد... كان طفله يتقلّبُ في بطن أمه... استوى واستعجل الخروج قبل الميعاد بشهر واحد... هو لم يتنسّم رائحة أبيه... وأبوه لم يتنسّم رائحة ابنه... من أين يعرف الطفل... مفردة «بابا» إذا لم يتفتح بين ذراعي والده... كانت أمه تمسك على أسنانها من الألم... وتغرُّه بكلمة «بابا» غراً... وكانت الطفولة أبداً... تحتلم بحلم الأمومة!

بين زحمة المُعزين... كانت عيناه الغارقتان في رقّة الضوء... وعذوبة العسل... تغزلان في زحمة السواد خيوط غزل تقمص الروح بالروح! والذي رآه... عندما شبّ

عن الطوق... كان يقول: يا سبحان اللّه نسخة مضيئة لوالده!

عندما همّت «مريم» بمغادرة العزاء... وقفت بجانبه... تأملته بشجن... ثم رفعته بين ذراعيها... حتى أعلى رأسها... وأنزلته شيئاً فشيئاً على الأرض... ثم وضعت في فمه قطعة حلوى... وقبّلت وجنتيه... وهي تخفي دموعها عن إشراقة وجهه المغسولة بمطر الطفولة!

انفضّ عقد العزاء... وبقيت ذاكرة «الربيع» لعنة عارية تلاحق القتلة والجلادين!

المحطة الخامسة عشرة

في تهمة الشيوعية[1]

في عام 1956 عاث الجهل والخوف خراباً في مكتبتي... واغتُصِبت الكتب على رفوفها... وقبرت وهي حيّة... في حاويات كرتونية... وأخرجت من البيت... وهي تئن في كراهيتها إلى المحرقة!

وفي عام 1982 ذات الجهل... وذات الخوف... تقفز إلى مكتبتي... وتنتزع الكتب من رفوفها... كتاباً...

(1) من (موج الحبر) للمؤلف.

كتاباً... ومجلداً... مجلداً... العيون تتعقب عناوين الكتب ومؤلفيها... وتلقي بهم في كراتين بلهاء فاغرة أفواهها!

ـ هذا قاموس... ما شأنكم به؟!

ـ قاموس شيوعي!

ـ هذه موسوعة فلسفية... ما شأنكم بها؟!

ـ موسوعة شيوعية!

وينتشل أحدهم مجلداً ضخماً من على رف المكتبة... ويلقي به على الأرض بحقدٍ وظلامية.

ـ وهذا... ماذا تقول عنه... كان كتاب «رأس المال» لكارل ماركس.

ـ أليس هذا قرآنكم... أيها الكلاب؟!

ـ لا تغلط قرآننا القرآن!

ـ هيّن عاد مهوب علينا!

تذكّرت الأستاذ عبد الكريم الجهيمان عندما اقتحموا مكتبته... وراحوا يحققون معه... حول كتاب «رأس المال»... بتهمة الشيوعية... وكان يرد عليهم: في مكتبتي كتب عديدة لها وجهات نظر وعقائد مختلفة متباينة... لماذا تلصقون بي هذه التهمة... هناك كتب بوذية ورأسمالية... وإسلامية... لماذا لا تصنفونني إلّا بأفكار كتاب «رأس

المال»... الذي لم أفتحه ولم أقرأه... فصفحاته لمّا تزل مشبّكة!

إنكم تحرضونني... وتثيرون في نفسي فضول قراءته... وسوف أقرؤه طال ظلامكم... أم قصر...! اقتيدت الكتب إلى المحرقة... واقتدت مكبلاً إلى الزنزانة... وعلى مختلف مشارب وأفكار الكتب كانت الزنزانات تعج بمختلف المشارب والأفكار... من المعتقلين السياسيين...

زنزانته بجانب زنزانتي... وكنا نتحاور تهامساً ونتحايا... ونتشاكر... ونتناظر بريبة ونختلف... طويل كالمئذنة مشدود الجسم... عريض الكتفين... عيناه جاحظتان... تحوطهما كدمات سوداء وجروح مندملة... لونه قمحي وشعره فاحم... وعلى جبينه زبيبة مطوية بنكهة الورع والتعبد... أنفه ينتصب في وجهه... كخنجر يماني... ولحيته تنسدل حتى ضفاف ركبتيه... يتلو القرآن في زنزانته... بحنجرة متفجّرة التقوى وصوت عذب رخيم... يطل من كوّة زنزانته... متسائلاً... عن الحدث الجلل الذي اقتلعني من بين أهلي وأطفالي... وألقى بي في الزنزانة!

هو تعتّق في الزنزانة... من جماعة (جهيمان) وأحد سجناء العصيان العسكري في الحرم الشريف... وأنا طري حديث عليها.

ـ أسأله... أنت من جماعة (جهيمان)؟

ـ يُجيب بنعم ابتسامة... وهزّة رأس يترنح فخراً!

ـ وأنت...

ـ تهمة الشيوعية.

تضطرم فرائصه... وتكفهر صفحة وجهه... وتتسع حدقتا عينيه...

ـ الشيوعية... ويهز رأسه متعوذاً ومحولقاً... وش جابك لها... اللّه لا يحلك!

ـ تهمة... مجرد تهمة... والمتهم بريء حتى تثبت إدانته!

وتتفتل عضلات وجهه دهشة واستغراباً!

ـ البارح جابو ناس منكم واجد... والتحقيق ما نام حتى الفجر!

اترك الدخان... تراك حرقت صدرك...

ـ ما أقدر... أنفخ وأتسلى... دخّن عليها تنجلي!

يبتسم وتخرج أسنانه كالفضّة... جراء سواك لا يفارق كفه: ما رايح تنجلي... ما دام مصيبتكم شيوعية... ويضحك... أقصد تهمتكم... المتهم بريء حتى تثبت إدانته...

يحليلك... مهب في ذا الديرة!

ـ يِنْعيْن اللّه... يِنْعيْن اللّه...

ـ توّكم عرفتوه!

ـ وأنتم ألستم نادمين على عملتكم السخيفة في الحرم الشريف!

ويجيب مستاءً:

ـ المؤمن لا يندم على ما يقدمه من جهاد في سبيل الإسلام!

ـ ما هذا الكتاب الذي في يمينك؟

ـ كتاب ابن كثير...

ـ اللّه لا يكثر خيرك...

ـ عليك بالقرآن... اقرأ القرآن... وتهدّج آياته!

ـ أنا أقرأ هذا... وأقرأ ذاك... وأقدح العقل بنور العقل!

ـ وشلون يعني؟!

ـ يعني أقرأ القرآن... وأقرأ ابن كثير... وغير ابن كثير...

ـ ما عليك القرآن يحوي كل شيء...

ـ حمال أوجه...

ـ بل وجه اللّه وحده!

أدركت بيني وبين نفسي جهله...

ـ إلّا قل لي يابو ناصر ـ لما سألته اسمه: قال أبو ناصر ـ إيش موقع المرأة بالنسبة لمفهومكم؟!

ـ المرأة مكنسة المنزل!

أيقنت تخلفه...

ـ والتلفزيون...

ـ ملهاة عن ذكر اللّه...

أدركت ظلاميته... وانسداد عقله!

وقلت بيني وبين نفسي: اللّه لا يوليكم على أحد!

ردمت كوّة الزنزانة... وغطست في كتاب ابن كثير!

أشهرٌ تتساقط على رؤوسنا... ونحن نعد أيامها ولياليها على أطراف أصابعنا... انتعلتنا فيها لعنة المعتقل والسجن... وانتعلنا معتقلها وسجنها... وخرجنا نعد على أطراف أصابعنا أيضاً... أعواماً أخرى... تتساقط على رؤوسنا... نكد أمداد وأوجاع تجاوزت أحد عشر عاماً... ونحن نتنفس فيها... لعنة سجن تكبيل حريتنا ومنعنا من السفر!

دارت الدنيا في الدنيا... وتجددت الحياة في الحياة... وتوالدت العقول في العقول... وتطاولت الثقافات في الثقافات: كتباً... وأفكاراً... وإبداعات... ومؤلفات... وروايات... وعلوماً... واختراعات مثيرة... ومعارف باهرة... والكتاب يعيش غربة الوطن... والتعثر في منافذ الحدود... وإنيمياء المكتبات... والثقافة يعتريها مطلق الخوف والجهل!

وعلى حين غرّة... ذات مساء من عام 1999 فضّ مطلق الخوف والجهل... حرمة منزلي وأشاع الرعب في داري... وتناهش براءة أطفالي... واستوى نذير حريق في صدر مكتبتي! تساقطت الكتب من على رفوفها... إلى الأرض تحت أقدام مطلق الخوف والجهل... وكأنني أسمع أنين الكتب... تتساقط تحت أحذية الخوف والجهل... وأحسب أن الكتاب مسكون بالروح والفكر والحياة والمشاعر... وله دماء تسيل في عروق صفحاته... وأحسب أنه يتنفس ويفرح ويحزن ويحب ويكره... مستشرقاً في روحه... روح وفكر كاتبه... وكأنّ نفسي تستشرق في متنه تمرد روحه وتمزق نفسه و«تعفرته» تحت قبضة أعداء الثقافة... وكهنة الخوف والجهل... وهم يُنزلونه عنوة واغتصاباً من على رفوف المكتبة... ويلقون به مكتوفاً مهاناً في أفواه الكراتين... وأكياس الزبالة!

الاعتداء على الكتاب وقمع إرادته تكبيل حريته... اعتداء على إرادة الإنسان... وتكبيل حريته وقمع حقوقه في الاطلاع والثقافة والإبداع والاكتشاف!

وتتكرر مأساة عام 1956 عبر مأساة عام 1982 عبر مأساة عام 1999... وكأن الزمن واقف وكأن الدنيا لا تدور... وكأن زمان ومكان الوطن ثابتا الحركة... وكأن لعنة ملاحقة الكتاب... تجسد تاريخ وجغرافية الوطن! وكأن

ما يقارب من نصف قرن والتاريخ يعيد نفسه بخجل في الأيادي القاسية ذاتها... والعقول التافهة ذاتها... التي تمتد بعشوائية فاقعة إلى حرمة الكتاب... وتنتزعه كتاباً... كتاباً... ومجلداً... مجلداً... والعيون تتعقب عناوين الكتب ومؤلفيها... وتلقي بهم في كراتين بلهاء فاغرة أفواهها!

ـ هذا قاموس... ما شأنكم به؟!

ـ قاموس شيوعي.

ـ هذه موسوعة فلسفية... ما شأنكم بها؟!

ـ موسوعة شيوعية!

وينتشل أحدهم مجلداً ضخماً من على رف المكتبة... ويلقي به على الأرض.

ـ وهذا ماذا تقول عنه؟! كان أيضاً كتاب «رأس المال» لكارل ماركس...

ـ أليس هذا قرآنكم... أيها الكلاب؟!

ـ لا تغلط... قرآننا... القرآن!

ـ هين عاد مهوب علينا!

وكأن عقارب الزمن متوقفة منذ أكثر من (17) عاماً... في الأداء ذاته... والعقلية ذاتها... والجهل ذاته... والخوف ذاته... والحقد ذاته على الكتاب!

كبلوا الكتب في الكراتين وأكياس الزبالة... وشدوا

رسغيّ بفكي الكلبشة... عصبوا عيني... واقتادوني إلى الزنزانة...

زنــزانــة عــام 1999 ذات زنــزانــة عــام 1982 ذات التنكيل... وذات القسوة... وذات الأسلوب... وذات التهديد... وذات الوعيد... وذات التعذيب... وذات الخوف... وذات الجهل... وذات الأمية... وذات البلادة... وذات الفوضى... وذات القذارة... وذات الدناءة... وذات العيب... وذات التسيب... وذات الفساد... وذات العنجهية... وذات التسلط... وذات المزاجية... وذات القبلية... وذات الإقليمية... وذات الطائفية! إلّا أنّ شيئاً واحداً تغيّر... وهو وضع جهاز كمرة تلفاز داخل كل زنزانة وفي مداخل السجن وممراته... للمراقبة... ولإحصاء حركات وسكنات وأنفاس المعتقلين والمساجين!

هم يدفعون عشرة ريالات يومياً لكل سجين وفقاً للنظام... حتى في السجن يسرقون... ويجبرون السجين على توقيع الاستلام... صباح كل أسبوع... ولا يدفعون له شيئاً!

فتح كوّة الزنزانة... سمعت الجلبة... رفعت اللحاف عن وجهي... تحايينا... وتباسمنا... استألفت ابتسامته... في الهزيع الأخير من الليل تُقفل عيون

الكاميرات... فتح باب الزنزانة، اقترب مني... كان شاباً في مقتبل العمر... همس في أذني:

ـ أنت عتيبي؟!

ـ لعنبوك... شلون عرفت!

ـ من عيونك! عيونك... عيون ذيب... وهذه العيون ما تركب إلا على عتيبي! القبلية في عظام المجتمع...

ترك الزنزانة مشرّعة على مصراعيها... وفرقع بجزمته العسكرية... وبعد ثوان... قدّم لي التمر والقهوة على آنيةٍ من ورق... وتخطت العصبيّة القبلية جميع الاعتبارات الأمنية... واستوينا روحي قبيلة واحدة! وكنت أترقب دور ورديّته لنخرق أبسط قواعد نظام السجن... من أجل عيون القبيلة!

غَرّدت أسلاك الهواتف بين الأهل والأصدقاء والمحبين على نبأ الخروج من السجن بعد شهرين وثلاثة أيام بالكمال والتمام... قلت (للباهلي) الجميل لن أغادر الرياض إلى الشرقية إلّا بعد أن أمرّ عليه في بيته[1]... قال: هذا واجب! دلفنا داره وهو متمدد على فراش المرض... عثر فيه الكِبَر وامتصه المرض وأحاله إلى عظم وجلد... ما كان كما عهدته قبل سنوات يضج بالنشاط والحيوية... ويتجدد

(1) أعني الشيخ حمد الجاسر. راجع كتاب «موج الحبر».

بالحياة وفي الحياة... يقدح الفكر بالفكر... والعقل بالعقل... ويتماوج نشاط خير ومحبة علم... ومعرفة وثقافة وتاريخاً بين الناس... وينهب جزيرة العرب طولاً وعرضاً... منقباً ومطلعاً ومجدداً وباحثاً... فقد ثقل سمعه وتقاصر سراج نظره... وأكل الكتاب لسانه... أما عقله وذاكرته... فهما يتجددان ويتواثبان ويتألقان... ويستويان في الحياة ونبض معاصرتها... وموج حبرها ومتن كتابها!

اقتربت منه... كان على السرير ممدداً... يشفه شيء من نور... ارتعشت في نوره... وأنا أنحني عليه أقبل جبينه... ابتسم وتعالى سناء النور... ضممته وهو يضغط على يدي... وأحسب أنّ يدي في قبضة نور...!

ـ سمعت بخروجك... الحمد للّه على السلامة!

ـ هذا من فضلك... وأنت السبب في خروجي.

ـ قل هذا من فضل اللّه... وأردف:

ـ لو استجابوا لخطابي... وأخذوا قولي... لما بقيت هذه المدّة في السجن! وأردف قائلاً:

ـ الحياة تطيب لذة وعذوبة... بمعاناتها وشدتها... ولا خير في حياة رخوة بليدة خاملة!

ضحك (الباهلي) وهو يقول:

ـ إما يحرّضك... أو يأخذ بخاطرك...

ـ قلت ربما الاثنين!

ـ قبل أسابيع كان في زيارتي (أبو عبد الرحمن) مستشار الداخلية... يُهلس بلحيته المنسدلة على صدره والمخضبة بالحناء... وقد أوصيته تجاه سجنك خيراً... وقد انتفض معاطفاً فيما يجوز... وما لا يجوز... إلّا أن ـ الخسيس ـ اختفى ولم يردّ عليّ حتى من باب الأدب! كان منزعجاً... ومستاءً من رجل يعطيك كلمة... ويكذب!

شفّت ابتسامتة موجة نور... وأنا أذكّره بالمثل «الرجل تربطه كلمة... والثور يربطه حبل».

ـ سوف يتفتل الحبل... فتلة... فتلة... بمشيئة اللّٰه وتأخذ حريتك كاملة!

اليوم خرجت... وبكرة يجيزون لك العودة إلى الكتابة في الصحف والسماح بالسفر...

المحطة السادسة عشرة

في بحث المباحث[1]

حمم بحث «المباحث» راحت تستقصي أثر صمت الاختفاء... وتُدير وعي علن التساؤل في العلن والخفاء... ثُلّة من الجنود... انقضت على منزلي في الخبر وقلبته رأساً على عقب!

---

(1) من كتاب (إني أشم رائحة مريم) للمؤلف.

تناهبت أيادي الجهل والبداوة... الكتب من على رفوف المكتبة... وكدّستها في أكياس الخيش... واستولت على جواز السفر... و«التابعيّة»... يا ويلك... أصبحت نكرة... بلا هوية... وبلا جواز سفر! لتكن هويتي الأرض والإنسان! هم الذين يُعطون الهوية... لمن شاؤوا... ويصادرونها أنّى شاؤوا... ما أرخص الوطن لديهم... يصادرون هوية أبنائه أنّى شاؤوا... وأنّى أرادوا... لقد عادوا يلهثون بُخفي حنين... دون أن يجدوا لي أثراً!

قال «علي الغامدي»: شددوا البحث... فهو داخل الوطن... في مكان ما... في جهة ما... في منزل ما... امتلأت المنفضة من أعقاب السجائر... وهو يشعل سجائره بعصبية... ويقلّب خواطر ذاكرته... خاطرة... خاطرة... ويُمعن في الفكر... في إمكان ما يمكن أن أكون!

هو... قصير القامة... بض البنية... مستدير الوجه... أملط اللحية والشارب... وله أنف صغير... يغوص بين وجنتين مترفتين... وشفتين قرمزيتين... مُلوثتين بالتبغ والبصاق... وأسنان ناصعة... يطوي بياضها سواك... يقضم أطرافه بعصبية... وله عينان رماديتان... يشوبهما لون العشب تحوطهما أهداب بنيّة فاتحة... يروب اللبن في لحظاتها... بشرته ناعمة شفيفة بحمرة وبياض (خلاسيين) لرجل قدم من أصقاع الجنوب... وإلا من أين

اصطبغت خلقته ببياض الثلج... وحمرة الشفق... وخضرة العشب؟!

وكان مظهرُه عُرضة... لِعِرْضِ رجولته... من بعض عابري سبل الشذوذ... حتى استبدت به عقدة النفس وتكوّنت في نفسه... وهو يتدرج في رتبه العسكرية... وكأنّه في طُغيانه وصلفه وحقده وقمعه لضحاياه... يُغطي وطر ماضيه... بوطر حاضره... وهو يتبوّأ كرسي رئاسة المباحث في مدينة الدمام!

تفقدوا الأقارب والأصدقاء... واقتادوا «عبد العزيز عويضة» مكبلاً بالحديد من «عرعر» إلى سجن «الدمام»... بعد أن وجدوا لديه رسالة... ذكرتُ في إحدى جملها «عرعر... وما أدراك ما عرعر» وكان جريد النخل يُمزق ليل نهاره... في سجن الدمام... لكي يفصح لهم ما عنيت «بشفرة» (عرعر... وما أدراك ما عرعر)... وكانت كلمة عابرة ذكرتها عبر سياق رسائلي التي بعثتها إليه! كان سوط «علي الغامدي» يهوي وينهض في خطف البرق على جسد «عبد العزيز عويضة» وخيوط الدم تتنافر من بين شقوق الجسد... والجلاد يغُط في لذّة ساديته... مُغترباً وطر ماضيه... في حاضر رتبته العسكرية!

اقتادوا أخي «عبد اللّه» إلى سجن الدمام واتخذوا منه رهينة... وَلْوَلَتْ «مريم» كالورقاء تبكي فلذة كبدها: يوسف

وأحمد وعبد اللَّه في السجن... وإسحاق انتعل ريح الاختفاء... وتلاشى عن الأنظار... دون أن تُدرك مصيره!

نهضت والتحفت بعباءتها... ولفّت «الملفع» على رأسها... واقتحمت منزل «العطيشان» وكيل إمارة المنطقة الشرقية... رمت بنفسها على باب منزله... وهي تصرخ «مُتحسّبة» على الظلمة والظالمين: «حسبي اللَّه ونعم الوكيل». أدخلتها «مزنة» داخل البيت... وأخذت بخاطرها... ومسحت دموعها بطرف «ملفعها» وهي تقول: «أنت في بيتنا... وما يكون خاطرك إلّا طيب». وعندما دخل «العطيشان» إلى المنزل رمت «مريم» نفسها في الحوش أمامه... وهي تفرك صدرها على الأرض... وتصيح: «يا ويلكم من اللَّه... أمس قيّدتوا ولدي عبد اللَّه بالحديد... ورميتوه في السجن رهينة... ويش أيدّريه... وين راح ولدي إسحاق... الحكومة أقوى منه».

ارتهان الآخرين عنوة... وأخذ الأقرباء رهينة... تحت لائحة شبهات الأقرباء... ظلم صارخ ومخالفة بيّنة لتعاليم دين المسلمين!

هشّ في وجهها مواسياً... ووعدها خيراً... في العمل من أجل أن يطلق سراح ابنها عبد اللَّه. بعد ثلاثة شهور... رفعت «مريم» يدها تدعو «للعطيشان» بعد أن كانت تدعو

عليه... وهي تُطوّق ابنها عبد اللّه بذراعيها... بعد خروجه من سجن الدمام!

كانت عيون العسس... تُغطي الخبر والجبيل والرياض... طرقوا باب بيت «الشيخ حمد الجاسر» في الرياض... وكان الطارق «ابن جميعة»... وقالوا له: لقد علمنا أن إسحاق الشيخ يعقوب... قدم من الشرقية إلى الرياض... وأنه حلّ ضيفاً عليك... وقالوا: إن لدينا «شرهة» تخصه... ولما نفى ما ادّعوه... واستغرب السؤال... قالوا له: إذا علمت عنه شيئاً... أو قدم للسلام عليك... لا تبخل بأن تخبرنا عنه... استغرب الإلحاح واستشعر شراً... وقال بينه وبين نفسه: اللهم... احم أولاد الحلال... من أولاد الحرام... وبعد مُدّة طرق بابه «ابن جميعة» مرّة ثانية... وقال له: لا تتعب نفسك بالبحث عنه... فقد وجدوه هالكاً على طريق «ابقيق»!

راحت «مريم» تلطم رأسها بيدها وتنوح مكلومة على هلاك فلذة كبدها... وآخر عنقود ثمرة ولادتها... ضمّها ابنها عبد اللّه... وتحلّقت حولها بناتها الأربع عائشة وفاطمة ومريم وأمينة يواسينها... ويؤكدن لها أن الخبر ليس يقيناً وليس بالضرورة أن يكون واقعاً!

شأن العسس في كل مكان يغطون فشلهم وعجزهم

بإشاعات كاذبة... لتقويم إحباطاتهم وتبرئة أداء مؤسساتهم من الفشل!

* * *

نقر الباب... ثلاث نقرات متتالية... أصختُ بأذني متوثب الأعصاب والأحاسيس... كرر النقرات الثلاث المتفق عليها... التقطت أنفاسي... ونهضت كالملدوغ نحو الباب... فتحت الباب... دلف إلى الداخل... وهو يتلفت يمنة ويسرة... شدّ على يدي... وارتميت بين ذراعيه الطويلتين... كان «الدبيكل» بقامته الشامخة... ولونه البرونزي... وعضلاته المفتولة... وجذعه العظمي... ورأسه المفرطح... وجبهته الحدباء... وعينيه الململمومتين المتلاصقتين بسحرٍ آسر مشع... وأنفه الطويل المثلث يتمدد بين وجنتين مشدودتين... وشارب حريري ينحني بلطف على شفتين رقيقتين قرمزيتين صارمتين... هو واسع الفكين عريض المنكبين... وله حفرة مستديرة تميز ذقنه الحليق المفرطح... أصابعه طويلة مبرومة تتمدد في كفين مملوءتين قويتين كالكماشة... وكان يفُتّ حبات الجوز بين الإبهام والسبابة بيسر وسهولة نادرين... ويضع مسماراً سميكاً بين إصبعيه... ويضغط عليه بالإبهام حتى ينحني ويلامس طرفه

الطرف الآخر... وكانت القوّة التي تتمتع بها كفاه أعجوبة أهل الجبيل... وحديث مجالسهم.

جلس بجانبي على الأرض... محاولاً أن يُخفي توتر أعصابه وقلقه... وهو يشد من أزري... ويُطفئ مسوّغات هواجسي... وتنافر أحاسيسي... ويُطمئن قلبي بسلامة تجاوز الخطر... وكنا نبحث خطة الخروج خارج الوطن... عبر أقرب منفذ.

من الممكن لأي نظام في الدنيا... أن يُحكِمَ منافذ ثغوره ومداخلها... بحرس الحدود والجنود وأجهزة المراقبة... ووسائل القمع والإرغام... وفتح أبواب السجون... ونشر العسس في طول البلاد وعرضها... لتشديد قبضته... إلا أنّه لا يمكن أن يتحكّم في الصدور والعقول ويكتشف خفايا النفوس لأولئك الذين ائتمنهم واطمأن إلى سلامة ولائهم وإخلاصهم!

وتبقى مسألة العلاقة بين العلنية والسرية... سر قوّة الإنسان... التي لا يمكن شقّ صدرها والوصول إلى حقيقتها... إلّا في حالة المكاشفة: مكاشفة العلنية بالسرية... والسّرية بالعلنية حتى العري! وهذا لا يمكن أن يتم... إلا في حالة تكاشف علنية النظام وسرّيته... بعلنية المواطنة وسرّيتها... في المسالمة والمصافاة والمصادقة

والمخالصة... على قواعد العدل والديمقراطية والحرية والمساواة!

ارتشفنا الشاي... وقلّبنا الوضع... واستكشفا الإمكانيات... وتجانبنا الأخطاء... وتحاذرنا المخاطر... وأخذنا التدابير والاحتياطات اللازمة في حالة الإخفاق... وفي حالة تمكن العلن... كشف حركة السرّ في العلن...

وكان يقول لي: سلامتك مهمة... وكنت أقول له: سلامتك... وفي موقع وظيفتك... أهم...!

ضمان مغاليق السرية من تسرب العلن... يشكل صمام الأمان! التسرب هو الداء القاتل للسّرية... العلنية تتدثر أحياناً برداء الورع الثوري والنبل والطيبة والنقاء... إلا أنّها تنُز بالغدر والختل والقذارة... وتتوثب بعناد لبتر أوصال السرية وتفتيت عضدها... ونخرها من الداخل... وشل حركتها وحرف مساراتها!

عقل تقنيّة السرية... وعقل تقنية العلنية... يشكلان هيئتي أركان حرب صامتة... ينبري كل طرف للآخر... في تبنيد خططه... وتوثيب مناوراته... ودوزنة أنماط أساليبه... للمغارضة وأكل كتف كل طرف... كتف الطرف الآخر!

العلنيّة... لا يمكن أن تصل إلى السرّية... إلا بالوسائل السرية... وكذلك السرية... لا يمكن أن تصل إلى سرّية العلنية إلا بالسرية... وجهان متماثلان متناقضان متناحران...

كنا نرشف الشاي... ونتدارس الوسائل الأكثر إنجازاً وتقنية للعبور... وكان يُقلّب كل مسألة على حدة... ويتمعّن في مفاصلها ومسالكها... ويضع أسوأ الاحتمالات وأدق المفاجآت... التي قد تنفرد بها حالة معيّنة... قد تكون عائقاً مفاجئاً... يؤدي إلى البلبلة والارتباك والتعثر ثم الوقوع في المحذور... لقد وضع بتفاصيل ودقّة تنكُّر الحركة... بعد أن فصفص خطة العبور بذهنية مبدعة وتقنيّة تناسبت لدينا نسبة إمكانية نجاحها 99%، وكانت البحرين المحطة الأقرب والأسلم والأمكن لاختراق حُجُب العلنية بتقنيّة السرية! وقد تمّ العبور بسلام رغم عيون العسس المتلبّدة في تضاريس انضباطية العلنية!

رحم الله «الديبكل» فقد كان مثيراً لتقنية السرية... وكان جوّاداً في برهانية نقائه... وكان يُتقن بذكاء وإبداع نادرين تكييف العلنية بالسرية... والسرية بالعلنية حتى التماهي...!

المحطة السابعة عشرة

عبد العزيز المعمر[1]

وكانت تلك الأيام التي مررتُ بها عليه تُنذر بغبشٍ سياسي في البلاد، وكانت الجهة التي أوغر الوشاة صدرها ضد عبد العزيز المعمّر أصبحت كلمتها نافذة في طول البلاد وعرضها دون منازع، وكنت في مكتبه في برن نرشف قهوة الصباح، وكنت ألمح في نفسي قلقاً دفيناً في نفسه، وكنا نتجاذب أطراف أحاديث لا تمت بصلة إلى محاذير قادم ما تختلج به نفسه ولا بصلة محاذير قادم ما تختلج به نفسي، ما كانت لدي الشجاعة أن أفضي بمحاذير ما تعتري نفسي من مخاوف لها ما يبرزها في القادم السياسي تجاه مصيره، إلّا أن محاذيري هذه لم تتجاوز إنهاء خدماته من السلك الدبلوماسي، وقد التأمت محاذيري بمحاذيره عندما استجلينا سوية ما يخالج نفسينا تجاه إجراء محتم في إنهاء خدماته من سلك الدبلوماسية، أما أن تتدحرج كرة الحقد والكراهية في النفس، وتبلغ ما بلغت إليه من فعل جريمة نكراء في تشويه وعي ذاكرته والإخلال المتعمد بحركة خصائص الدوائر

---

(1) من كتاب (عبد العزيز المعمّر ذاكرة وطن) للمؤلف.

الدماغية لديه، وذلك بتدمير الجهاز العصبي الأساسي في المخ: Central Nervus System وهو الركيزة الأساسية في النمو عبر الصدمات الكهربائية: Electric Shock وهي جريمة في تشويه خلقه والقيام بزجه في زنزانة انفرادية في سجن العبيد طوال قرابة إحدى عشرة سنة، فهذا لم يدر في خلدنا أو في خلدي على الأقل، على الرغم من أن فرائص ذاكرته أكاد أحسها تأخذ به بعيداً بعيداً عن مدارات حديثنا ربما كان يتوخى ما هو أكثر وأشد من إنهاء الخدمات الدبلوماسية، وربما هو خير من يدرك سموم الأحقاد والانتقام التي تقتات به بعض النفوس التي لا تهدأ ولا يرتاح لها بال إلّا بعد إفراغ سموم الموت في ضحاياها!

خراب الأوطان يأتي بالدرجة الأولى من تسلط أحقاد نفوس قادتها وانتقاميتهم على أنبل وأنبغ وأطهر وأصدق أبناء الوطن.

الحقد والكراهية والانتقام حالات مرضية نفسية، كثيرون من زعماء وقادة العرب وملوكها مصابون بعصاب الكراهية والبغضاء والعدمية الانتقامية والإذلالية المنوطة بوضاعة ودناءة نفوسهم، خلافاً للنفوس الكريمة التي من شيمها العزّة والكرامة والتسامح وفروسيّة الأخلاق الحميدة.

بعد أن تلقى عبد العزيز المعمّر الأمر بترك منصبه سفيراً

فوق العادة في سويسرا والعودة الفورية إلى الوطن، خلافاً للأعراف الدبلوماسية بتحديد مدّة معيّنة، وكان ذلك مثار احتجاج من لدن عبد العزيز المعمّر وإهانة تنافي أبسط الأعراف الدبلوماسية وبروتوكولها، وهو ما ضاعف روح الانتقامية وشدد كراهيتها ضد عبد العزيز المعمّر، واعتبر ذلك تبرماً وعصياناً يجب التحين لمواجهته وقمعه.

كثيرون أولئك الذين أحاطوا عبد العزيز المعمّر بالعطف والتضامن، وكان مجلسه في الرياض مزاراً دائماً للأصدقاء والمحبين والمريدين، وقد فُسر ذلك تفسيراً مُغرضاً، واعتبره الواشون تحدياً مقصوداً، وكان الوشاة والمغرضون وصعاليك الانتهازية ـ هكذا أريد لهم ـ ينقلون أكاذيب وافتراءات إلى جهات معيّنة عن مجريات أقوال عبد العزيز المعمّر وأحاديثه «الافترائية» على جهات عُليا، وكانت كُرةُ الأحقاد والكراهية والانتقام تتدحرج في النفس حتى سال تدفق سمومها وبلغت تفجر زعافها، وكان «عمر شمس» على أهبة الاستعداد مع ثلة خاصة من ضباطه وجنوده في تلك الليلة الموقوتة من أعلى سلطة في البلاد.

نُقِلَ عبد العزيز المعمّر من بيته معصوب العينين مكبل اليدين ومن دون تحقيق وتهمة محددة الإسناد اقتيد إلى مكتب عمر شمس، ويُقال إنه أجبر على ابتلاع حبوب معيّنة أخلّت

بشبكة خلايا ذاكرته الدماغية، وذلك بتناول جرعات عالية من مادة Mlatnin بهدف الإخلال بتوازن الخلايا العصبية في كيمياء المخ... من الأحاديث والأقوال. وكلها روايات لا أحد يستطيع أن يؤكد صحة أو عدم صحتها، وللأمانة فإني سألته عن ذلك، وقد صَنَتَ في شبه غيبوبة ثم استدرك بعد إلحاح قائلاً وكأنه يتذكّر في صعوبة: «إنهم سلطوا على جبهتي موجات صدمات أنوار ساطعة».

ومن مكتب عمر شمس حُمِلَ معصوب العينين مقيد المعصمين في السيارة إلى سجن العبيد في الأحساء، وقد أودع كهف زنزانة داخل سجن العبيد.

إن «جورة» أو كهف زنزانة سجن العبيد في الأحساء هو سجن يسجن فيها أولئك الذين عليهم أن يموتوا ميتة ربهم، وينهوا حياتهم بشكل «طبيعي» دون تدخل قصاص بشري من الخارج، وقد أُنهيت حياة بعض زعماء العشائر وشُعراء وشخصيات بدوية ووطنية مثل محمد الربيع في هذا السجن الرهيب بعد وإبان توحيد شبه جزيرة العرب.

وإذا كانت حاكمية الجروح قصاص، فإن من لم تندرج عليه مثل هذه الحاكمية عليه أن يسجن في ظروف زنزانة سجن العبيد التي تُعجل الإتيان بأجله.

عندما أُدخل عبد العزيز المعمّر في كهف زنزانة سجن

العبيد ـ ولأنه لم يقم بأية جريمة تقتضي القصاص ـ كان القرار أن ينهي حياته من دون قصاص، غير أن واقع أمر إيداعه في كهف زنزانة سجن العبيد يُشكل قصاص إعدام ضمنياً، واحتيالاً على شرعية القصاص.

عندما ذهبت (أم محمد) تطلب الإفراج عن زوجها كشّرت الكراهية عن أحقادها الدفينة، وتنفست قائلة: «لا تُفكري فيه شيليه من راسك واعتبريه في عداد الأموات».

الكراهية على الأرض تريد، واللَّه المحبة في السماء يريد، وتكر قرابة إحدى عشرة سنة. . . وعبد العزيز المعمّر يذوي في كهف زنزانته، ورغم الكراهية وعدم الزيارة كانت حبوب الفيتامين تصل إليه، وربما كان مدد حياته، وعندما اكتشف أمر الجنود الأربعة الذين كانوا يوصلون إليه حبوب الفيتامين، لا أحد يعلم ماذا حلّ بهم إلّا اللَّه.

وكان إبراهيم السفاعي حارس سجن العبيد بطبيعة خبرته المديدة في مناسبات الفواجع الكبيرة والأفراح، كان يتوقع أن يأتي العفو والإفراج عن بعض المساجين، وعندما انطلقت رصاصة غادرة من فوهة مسدس في رأس الملك فيصل وارتفعت مآذن الرياض تدعو بالصلاة والرحمة على روحه الطاهرة، وأصبح الأمير خالد بن عبد العزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية، كان إبراهيم السفاعي يصوّت بأعلى

صوته في كهف زنزانة عبد العزيز المعمّر منادياً:
عبد العزيز... عبد العزيز... وعندما لم يرد عليه أحد! هزّ رأسه محولقاً وهو يقول: رحمة اللّه عليه رحمة اللّه عليه! معتقداً أنه انتقل إلى رحمة اللّه في زنزانته.

وعندما راح يناديه مرّة ثانية:

عبد العزيز... عبد العزيز... ليتأكد من حياته أو مماته، كان صوت عبد العزيز المعمّر... يأتيه من بعيد ضعيفاً: ويش تريد... ويش تريد؟ وإذ به تنتفض فيه الروح وهو يسمع صوت السفاعي قائلاً: قُتل فيصل... واستلم خالد... أبشر بالفرج... أبشر بالفرج.

كانت فرحة عارمة عمت قطاعات واسعة من أبناء الوطن، فالعفو الذي أخرج عبد العزيز المعمّر من سجن العبيد وهو بين الحياة والموت بعد أن قضى ما يقارب إحدى عشرة سنة، شمل أيضاً سجناء المنطقة الشرقية في سجن الدمام وهم من زملاء وأصدقاء ومحبي عبد العزيز المعمّر وقد تعرض بعضهم إلى ذات سجن العبيد الذي سجن فيه عبد العزيز المعمّر، كما شمل الكثيرين من الشباب الوطنيين والديمقراطيين من المنفيين في سورية الذين قضوا هناك سنوات طويلة في منفاهم بعيداً عن الأهل والوطن.

وضع عبد العزيز المعمّر يده على عينيه اللتين لم تعهدا

نور الشمس منذ سنوات، وراح يرفعها شيئاً... فشيئاً لتعتادا نور الشمس وهو يخطو خارج سجن العبيد على الأرض خطوات وئيدة مرتبكة الإيقاع كأنه فقد خطواته المعتادة... حتى الفضاء الذي عاش غربته في السجن هذه السنوات الطويلة... غرّب عليه ملامح ذائقة الأشياء التي اعتادها، وراح بالكاد عبر النور الساطع يتفقد بنظراته كائنات الفضاء: السماء والشمس... وجدران البيوت... وأبوابها... والأشجار... وحركة المارة... ووجوه الناس... ومداخل الشوارع... وكأنه يحاول بالكاد... استعادة إلفتها... بعد غياب طويل.

حركةُ الجسد الميكانيكية والبيولوجية بمختلف أعضاء وأجهزة حواسها التي تأخذ رتم إيقاعها الطبيعي في الحياة والعمل عندما تُحجر في زنزانة انفرادية لا تتجاوز المترين ونصف المتر هذا يعني فصل أعضاء وأجهزة حواس حركة الجسد الميكانيكية والبيولوجية عن واقع إيقاع عالمها الطبيعي في الحياة والعمل، وفي تجديد استمرارية تعاكس الجدل المادي والفكري لديها وتعطيل حركة حواسها الجسدية الميكانيكية والبيولوجية ودفنها في سكون عدميّةٍ وبلادة وقمع وذل جدران الزنزانة، وتشويه إنسانية الإنسان التي بطبيعتها

الإنسانية تسمو وتنمو وتتجدد وتسعد في فضاء حرية حركة أحاسيسها المادية والفكرية.

ولذا اقتضت أنظمة بعض الدول التي وصلت إلى بُعدٍ إنساني حقيقي تجاه حقوق الإنسان بتحريم إيقاف حركة الجسد الميكانيكية والبيولوجية وأحاسيسها، وذلك بوقف عقوبة الإعدام وتحديدها بالسجن المؤبد، ولكن في ظروفٍ تأخذ في حساباتها حقوقاً إنسانية تُعطي الجسم فضاء مساحة حركة أحاسيسها الميكانيكية والبيولوجية، خلافاً لكثير من تدابير الأنظمة البوليسية والقمعية في بتر أطراف الإنسان وإعدامه بحد السيف أو وضعه في زنزانة ظروف ملتزماتها غير إنسانية تنافي طبيعة استمرارية حياته الإنسانية وفي حالات تخلّ بحركة أجهزة الأحاسيس البيولوجية والنفسية والفكرية، وتعطل انتظام الإيقاع السوي لديها.

وهذه حالات تأخذ طابعها بشكل عام، أما عبد العزيز المعمّر فقد استهدفته جهات... قُبِّحتْ بظلام بغضاء الانتقام وعمدت إلى الإخلال بشبكة أجهزة أحاسيسه الدماغية، وقد أصبح في وضع مغايرٍ تماماً عمّا كان عليه، وكان يهذي في حالات انفراده وكان لا يستطيع أن يركز في تفكيره، وقد تهمّشت ذاكرته في دوائر النسيان، وتزايدت لديه المحاذير والشكوك بسبب ومن دون سبب.

أذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه عائداً من مكتبي في الدمام إلى بيتي في الخُبر، وكان عبد العزيز المعمّر عائداً بسيارته المرسيدس الخضراء في اتجاه معاكس من الخبر إلى الدمام، وكنت ألمحه وهو يتكلم مع نفسه ويهز رأسه ويُحرك يديه كأنه يُخاطب أحداً، وبعد أن تجاوزته أدرت مقود سيارتي خلفه وأنا أضغط على منبهها أطلب منه الوقوف.

توقفنا على جانب الطريق، تعانقنا بحرارة وذرفنا دموعنا بسخاء، ومسحناها سوية ونحن نلتقط أنفاسنا في وعي ولاوعي حرارة اللقاء وحميمية الذكريات. أوقفنا سيارته على جانب الطريق وعدنا سويّة في سيارتي إلى «بيتي» في الخبر الجنوبية (الصبيخة).

كل شيء اختلف لديه... حضور شخصيته كارزما إرادته... سحرُ ابتسامته... عذوبة حديثه... نفح ذاكرته... نبوغ ضياء عينيه... وكنت أتركه يتحدث مع زوجتي نعيمة... يسألها عن الأولاد والأهل في البحرين وأذهب إلى الحمام أعصر قربة عيني من دموع الألم والحسرة وأمسحها، وأعود هاشاً باشاً مبتسماً بفرح ظاهري وحزن وألم شديدين يُمزّقان الأحشاء والوجدان وأقول بيني وبين نفسي: الكلاب... شوّهوه... لقد شوّهوا حقيقة العزم الإنساني لديه... ومزقوا نسيج ذاكرته.

كل شيء تغيّر لديه إلا شيئين: حبه الشديد لوطنه وكراهيته الشديدة للاستعمار والرجعية.

لقد عرف البيت، وكانت رجله كثيراً ما تنقله إلينا دون سابق موعد، وكثيراً ما كانت سيارته يعتورها العطب وأبعث من يقوم بإصلاحها.

في ذلك اليوم الذي أدخل سيارته في الكراج للتصليح كان من ركاب الباص العام متجهاً من الخبر إلى بيته في الدمام الذي شيدته إحدى الشركات السويدية بالأخشاب في حي الخالدية بجانب فندق المعيبد، وكان أثناء نزوله من الباص سقط على الأرض، ورفّت روحه... جهة باريها... في صفاء طُهرٍ ونقاء وطنيين، وذلك في 25/ 10/ 1984.

عبد العزيز إبراهيم المعمّر سيبقى ذاكرة وطن... يتجدد في ضمير وشرف الإنسانية التقدمية نحو غد الحرية والديمقراطية والمساواة.

المحطة الثامنة عشرة

خالد النزهة[1]

عندما تحطمت محاولاتهم القمعية على صخرة صموده

---

(1) من كتاب (بصمات وجدانيّة) للمؤلف.

ومقاومته... قال كبيرهم... بعد أن نظر إلى ساعته: اتركوه وفكر ملياً ثم أردف: وإليّ به بعد ثلاثة أيام... همهم أحدهم وهو مطرق الرأس قائلاً: لقد نواه الرائد... وقال آخر: الحكمة في انتزاع المنطوق لا انتزاع الروح (!).

وتراهنا على الضحية التي أودعت بقيودها ونزيفها في الزنزانة... أحدهما راهن على انتزاع الروح والآخر على انتزاع الاعتراف... وكان الرهان على قارورة ويسكي... «ما أرخص الإنسان لديهم» قالها بينه وبين نفسه... وتذكر قصيدة محمود درويش «جميل أنت في روما... قتيل أنت في روما» لماذا هذه القصيدة بالذات... ولماذا في مثل هذا اليوم بالذات أيضاً... انتفضت فرائصه واصطكت رعشات أطرافه... وانتشرت ذبذبات رجفات باردة في عافيته... وتسارعت دقات قلبه وجف لعابه في فمه... وأغمض عينيه. وعلى نقرات نافذة زنزانته... فتحهما وإذا هو بعينه هذا الذي يلاحقه بنظرات حزينة وغريبة كل ليلة... وهو يطيل البحلقة والتأمل دقائق... دقائق.

ثم يغرب دون أن ينبس ببنت شفة... يرتدي بدلة عشبية ونجمتان تومضان على كتفيه... قامته قصيرة وجسمه عظمي ممصوص وبشرته قهوية فاتحة... وعيناه جاحظتان مدفونتان

في مآقٍ غائرة تنمان عن معاناة أرق مزمن. . . أنفه العظمي المستطيل يزيد من وجهه الطويل طولاً. . . وله لحية ناعمة سوداء تلم وجهاً أسطورياً يتسم بالصرامة والغموض. . . وشفتان رقيقتان فاترتان متسائلتان أبداً عن سر غامض أضاعه بين كظيظ هذه الزنازين التي تتكدس فيها الأجساد كما تتكدس أسماك السردين في علبها المضغوطة. تساءل. . . ولكن لماذا زنزانتي بالذات؟. . . ها هو يتسلل كل ليلة وينقر الشباك ثم يطيل التأمل دقائق. . . دقائق. . . ويختفي كما تختفي أوهام حملة النجوم الزائفة في زحمة الحياة. . . يذكرُ من أشقتهم الأصفاد وأضاءت بصائرهم سجون الطغاة بأن رهين الزنزانة يمشي بأفكاره آلاف الأميال كل يوم. . . ويتنزه في الغابات ويصطاد الوحوش. . . وينتقل بحرية في أرض اللّه الواسعة. . . وهو يعيش أبداً على براكين الترقب. . . ويتوسد صدمات المفاجآت. . . ويطلق العنان لبنات أفكاره في تفسير كل شيء صغر أم كبر. . . ويقلّب الظواهر ويفلسف الحركات. . . ويتأمل الأجواء من خروق زنزانته وهو يسبح في الخيال. . . وينسج خيال المحال. . . ويكوّر ذهنه متأهباً لإبداع المستحيل (!).

ومن المحال وأجواء واقع الخيال. . . وخيال الواقع. . .

يحلم... ويحلم... والحلم مآله إلى الواقع واللاواقع...!
قال لنفسه وهو يحلل شخصية هذا (الجندي) الغريب... بعد أن راح يسترجع ما قرأه من كتب علم النفس... وتناسخ الأرواح... وتوصل إلى أن نظرات هذا الجندي لا يمكن أن تكون إلا نظرات عطف وشفقة... وربما محبة...! وراح يستعيد ملامح قسمات وجه الجندي... وهو ينظر في مرآة مشروخة في حجم راحة اليد... محاولاً مقارنتها بتقاطيع وجهه... إلّا أن الشبه بينه وبين الجندي يبلغ بعد الأرض عن السماء... وقال لنفسه: إذاً... ربما أشبه والده... وعندما يراني يتذكر والده فتتحالب نفسه عطفاً وشفقة تتنازع بين الممكن واللاممكن... وتذكر أن الأرواح هي التي تتناسخ وليست الأجساد... وقال: إذاً إنه يستشف شبه روح والده في نفس روحي... وعلى حين غرة يفيق إلى تخيلاته كالملدوغ قائلاً: ولِمَ لم يكن من الأبناء العاقين لوالدهم... وهو ينضح كرهاً وينز حقداً أسود على والده... وتذكر حاله هنا... وحاله هناك من تاريخ غابر الزمن وحاضره وأردف قائلاً: بل لماذا لم يكن هناك من قتل والده... وهو يستشف الشبه فيَّ ويتحيّن فرصة الانتقام لا سيما وأنا بين يديه... كان يغفو ويفيق على مثل هذه الهواجس

الكابوسية... وعلى صرير وجلبة فتح أبواب الزنازين وإغلاقها... تتعانق الأصوات المثقلة بالأوجاع والآلام والأنين معلنة تراتيل المكلومين والمقموعين في محراب الدم والترديد... (شدّة وتزول... شدّة وتزول!).

هذا هو اليوم الثالث... لقد بدأ يوم الرهان... وعندما بلغت الساعة الواحدة ليلاً... اقتاده اثنان مدنيان... بعد أن نزعا قيوده من اليدين والقدمين... وكانت فرائصه تصطك من البرد... وهو ينتفض ويرتعش كالمذبوح... قال أحدهم بتودد مصطنع: ارحم نفسك يا «خالد» وتنكب غرورك وعنجهية إصرارك فالرائد لا يلعب...

يا للمفاجأة: هذا هو الجندي بدمه ولحمه... يفتح له الباب ويدخله في غرفة خالية من كل شيء إلا من بقع دكناء تنتشر هنا وهناك على الأرض والجدران... ثبت قدمه في ظهره ودفعه بهمجية وحقد حتى كاد أن يرتطم وجهه بالجدار... قال في نفسه: يا له من بهيم يتنفس مرارة سادية رعناء... لقد أتى دوره، إنه ينتظر أوامر سيده...

بعد دقائق أخرج وأدخل في غرفة محاذية... أمره بالجلوس على كرسي أملس ناعم كزبدة هولندية... كانت خلفه عصاً غليظة بارزة مسندة إلى الجدار... وهو منحنٍ على مكتبه ببدلته العسكرية الأنيقة... وشرائط ونجوم الرُّتب

تومض متزاهية على كتفيه... شعره الأجعد وعيناه الفاحمتان وبشرته القهوية... تشير إلى مكتسبات جغرافية منطقة القصيم التي تميِّزه... وكان صولاً مشهوراً نزق المزاج... حاد التصرف يكره الشّعر والموسيقى باستثناء (المارش)... ثقافته العسكرية تستولي على نبضات ذراته الروحية والجسدية... وتحصي أنفاسه المشبعة بالأنفة العرقية... ومفردات حياته التقليدية فجّة لا تخرج عن سكة استقبال الأوامر والتنفيذ... حكمته في الحياة وضعها في إطار نحاسي جميل (لا يطرق الحديد... إلا الحديد)... «ولكننا لسنا حديداً... نحن مهج إنسانية من روح ودم... نحب الورد ونعشق الأرض ونطير مع الحمام» قالها وتهاوى تحت اللكم واللطم والركل... وضع جزمته الجميلة المعنقة ذات اللون البني الفاتح على رقبته وهو يصيح بتشنج: أخرجوه... أخرجوه... بلمح البصر انقضّا عليه ورفعاه من الأرض وأدخلاه الغرفة المحاذية التي أُخرِجَ منها تواً.

كانت السياط تتخالف عشوائياً على جسمه... فتتلاهب جروحه وتتفجر قروحه وأورامه... وكانت الصدمات الكهربائية تمزق شرايين لفائفه الداخلية... فتفيض أوجاعه وتتورم حرائقه... ويفتح عينه على وجه الجندي ذاته... المنغمس في لذة دناءاته التعذيبية... هكذا أرضعوهم

الكراهية منذ الصغر مع حليب الأم... وزرعوا في نفوسهم الحقد على اليساريين والديمقراطيين. وكانت نفسه تهمس لنفسه:

إن ضريبة الوطن تطالبنا بالموت أو الحرية... وأغمض عينيه... واستوى جثة هامدة لا نبض ولا حراك فيها... وتوقف الوحش البشري يلهث أمام ضحيته... وعند باب (الثلاجة) عاوده بصيص نبض الحياة... وتحت معاينة الطبيب... عاد إليه النبض وفتح عينيه ثم أغمضها إلى الأبد!!

* * *

كتب صدرت للمؤلف

- مطارحات فكرية ـ الجزء الأول، 1960.
- مطارحات فكرية ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2001.
- قضايا سعودية، 1960.
- بصمات وجدانية، دار قرطاس، الكويت، 2001.
- موج البحر، دار قرطاس، الكويت، 2001.
- في الثقافة والنقد، دار قرطاس، الكويت، 2001.
- وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الأول، دار قرطاس، الكويت، 2001.
- العلمانية طريق التقدم، دار قرطاس، الكويت، 2004.
- عبدالعزيز المعمَّر.. ذاكرة الوطن، دار قرطاس، الكويت، 2005.
- وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2005.
- وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثالث، دار قرطاس، الكويت، 2007.
- ما هي الليبرالية، دار قرطاس، الكويت، 2007.

- الإرهاب في جزيرة العرب، دار الفارابي، 2008.
- إني أشم رائحة مريم، الجزء الأول، ط1، دار قرطاس، الكويت، 2002، ط2، دار الفارابي، 2010.
- إني أشم رائحة مريم، الجزء الثاني، ط1، دار الفارابي، 2010.
- وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الرابع، دار الفارابي، الكويت، 2011.

المحتويات

الإهداء 7
المقدمة 9
ثلاث عشرة محطة في السجن 55
كتب صدرت للمؤلف 155


منتدى سور الأزبكية

.... في السجن تتفقَّد الحرية قيدها في الإنسان.. ويتفقد الإنسان قيده في الحرية!!

ويُطبق القيد على معصم الحرية في الإنسان... ويتأوَّه الإنسان في الحرية... وتتأوَّه الحرية في الإنسان!!

العقاب في القانون... أم القانون في العقاب... أم السجن قانون وعقاب؟!

يوم أن استوى الإنسان على الأرض... استوى حراً طليقاً في الحرية...

وكان القانون.. وكان العقاب.. وكان السجن... وكان الإنسان يحاول جاهداً.. فك قيد القانون وقيد العقاب... وقيد السجن...

وكان الحاكم يرى: في القانون حرية.. وفي العقاب حرية.. وفي السجن حرية..

«ايه أيتها الحرية.. كم من الجرائم اقترفت باسمك».

اسحاق الشيخ يعقوب

- مواليد المملكة العربية السعودية العام 1927.
- أواخر 1956 فرّ إلى البحرين ومنها إلى لبنان وسوريا حيث كتب في عدة صحف ومجلات في هذه البلدان.
- عام 1965 استقر في لبنان وسوريا، ونشر سلسلة دراسات.
- منذ عام 1976، عاد إلى الوطن بشكل علني وانخرط في النشاط الثقافي والفكري والصحافي.

ISBN 978-9953-71-634-3

